جمال الغيطاني

دفاتر التدوين: الدفتر الثالث

رشحات الحمراء



دار الشروق

رَشَحَاتُ الحَمْرَاء

الطبعـــة الأولـــى
١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م

© دار الشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى
رابعة العدوية ـ مدينة نصر ـ ص . ب : ٣٣ البانوراما
تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: email: dar@shorouk.com

جمال الغيطانى

دفاتر التدوين: الدفتر الثالث

رَشَحَاتُ الحَمْرَاء

دار الشروق

مصـــدرهـــا

من أعلى تجيء. فجأة.. تظهر فوق السطح حيث أعواد البوص وأقراص الجلة، والقدور الفارغة. سلالم بدون حاجز، تصل ما بين الفناء والفوق، البيوت متجاورة متصلة، كل منها يفضى إلى الآخر عبر حواجز واطئة من الطوب اللبن، كل بيوت جهينة مبنية منه، بتراصه وتماسكه، عدا منزل الحاج صالح العمدة، ومنزل آل الضبع، فمن الحجر، بيوت الأفراد المنتمين إلى عائلة واحدة متضامنة، تبدأ فاصلة أفسح، تليها منازل عائلة أخرى.

هنا عائلة باشا. إحدى العائلات الرئيسية بربع حسام الدين، أحد أربعة أقسام تتكون منها جهينة، ربع أبو خبر، ربع بنى رماد، تقف جهينة عند الحد الغربى للأرض المزروعة، قبل الوصول إلى الجبانة يمكن للمرء أن يضع قدمًا بين الخضرة والصفرة. بين الأرض المزروعة والصحراء الممتدة إلى موضع مغيب الشمس، يحد الأفق جبل صخرى وعر، مأوى الذئاب والضباع والأنس والجن والمطاريد والمقابر التى تحرسها الأرصاد حتى لا يمس أحد محتوياتها من توابيت وأقدمين محملقين إلى اللاشىء، كأنهم رحلوا بالأمس مع أنهم يرقدون منذ آلاف السنين. لا يجرؤ على الدخول إليهم إلا من أوتى

القدرة على فك تلك الأرصاد وإبطال عملها . أما الجاهل فربما يلقى مصيراً لم يخطر له على بال ، كأن يتحول إلى حجر ، أو يصبح حيوانًا نصفه إنسان والنصف الآخر جماد أو حيوان فلا يجرؤ على العودة إلى أهله وصحبه أبدا ، تتبدل الصورة ، وتختلف الكينونة البشرية ، لهذا لم يجرؤ معظم الناس على المغادرة واقتحام المراقد الأبدية والكهوف التى لا تفصح عن مخارجها ، إذ لم يعد منها أحد ، نفر محدود تجاسر وتجاوز ، بعضهم لم يعد ، وآخرون رجعوا مغايرين للأحوال التى مضوا عليها ، حتى أن بعضهم مثل عبثا على ناسه ، الجبل الغربى قريب ، بعيد . ماثل للرؤية ، غير متاح إلا لمن تتردد سيرتهم على الألسنة ، سواء كانوا من خفاف العقول ، أو المغامرين ، أو المطاريد ، الذين لم يجدوا مكانًا يأويهم إلا تلك المغارات ، والدروب المنفية ، النائية عن كل طارق .

تجىء الحمراء من الغرب ، تنتقل عبر الأسطح بسهولة ، لم أعرف بالضبط أى بيت من عائلة باشا يأويها ، باشا جدى لأمى ، اسم وليس لقبًا ، فيما بعد كان صحبى يتطلعون بدهشة كلما ذكرت اسمه .

«محمد على باشا» .

«معقول جدك باشا؟!» .

أسارع موضحًا .

«خالى تاجر غلال ، هذا اسم جده . . » .

فى بيت خالى خرجت إلى الدنيا . تنسمت أول أنفاسى وأرسلت

الصرخة الأولى، نصل إليه أول شهور الصيف، تمضى حوالى أربعة شهور، كافة من عرفتهم فى البيت دخلوا عبر الباب، عداها، لم تأت إلا من أعلى، من فوق، من سطح إلى آخر تعبر. هكذا يمكن للنساء أن يتحركن سافرات بعيدا عن الطريق. لو خرجت إحداهن لابد أن ترتدى «الشقة»، رداء من القطن الأسود، السميك، يسدل على الثياب كافة، يغطى الرأس. وتمسك اليد بطرفه حتى لا تتاح فرصة إلا للنظر من خلال فتحة صغيرة، يمشين بالقرب من الجدران، بعيداً عن نهر الطريق، فضفاض، لا يتيح أى إمكانية لبروز الاستدارات أو الملامح. بعكس الملاءة اللف التى أعرفها فى مصر، والتى تفصح أكثر مما تخفى، خاصة عند اللواتى يجدن حبكتها ويضبطن إيقاع مشيهن على ملامستها لهن.

ملاءة لف فى جهينة تعنى فضيحة وقتئذ. عندما سافر قريب لنا إلى مصر وفتح الله عليه، بدأ تجارة غلال موفقة فى سوق أثر النبى، الذى يستقبل المراكب القادمة من الجنوب بحمولاتها من فول وعدس ولوبيا وسمسم وقمح وشعير وأوان فخارية من قنا ونجع حمادى، بعد أن تيسر حاله أقدم على أمرين، أوّلهما: الحج إلى بيت الله الحرام. هكذا اقترن اسمه بلقب الحاج فى السوق، ثانيهما: زواجه واحدة من بنات مصر، زوجته الأولى أم عياله فى جهينة، عاشت وماتت بها، الأولى فوزية والثانية سميرة، ابنة كبابجى معروف من المذبح. عندما جاء بها للمرة الأولى، جرى اسمها على لسان النسوة بالدهشة والاستنكار. ليس بسبب دمامة. إذ كانت بيضاء، لينة القوام، رقيقة الصوت، وليس بسبب ترخصها أو قلة أصلها، كانت وقورة، متزنة،

مهذبة، غير متعالية، تقضي حاجتها بنفسها، أبوها رجل طيب كما يؤكد كل من نزل إلى مصر وعرفه. إنما.. لارتدائها ملاءة لف.

الانتقال عبر الأسطح لا يقتضي ارتداء «الشقة» كما أنه غير مستحب لجميع النساء، يلجأن إليه من هن دون البلوغ، أو إذا كان العبور قريبا من بيت الزوج إلى دار الأب، أو الفقيرات ممن اعتدن الخدمة، تجيء إحداهن للمساعدة في الخبيز، مقابل ذلك تعود برغيفين أو ثلاثة. إضافة إلى ما تيسر، تلقيمة سكر وشاي، هدمة قديمة فاضت عن الحاجة، ماعون فارغ، تساعد في الإعداد لحفل عرس، أو تجهيز مسافر إلى بحرى بهدايا من البلدة للأقارب والأحباب، أرغفة من العيش الشمسي أو بتاو، بلح مجفف، ثمار دوم، حمام مذبوح، بط، أوز، ملوخية ناشفة. يضع هذا كله في قفة من الخوص تغطي بجلباب قديم، يعود من هناك بالسكر، الصابون، قماش للحريم والأولاد، عقود خرز ملون، مناديل، عصائب ملونة، وقمصان داخلية شفافة تتلقاها المرأة خجلة، متدللة. تخفيها بسرعة. تشارك في إعداد وليمة لضيوف أعزاء، أو في تنظيف البيت قبل المواسم والأعياد.

إلى هؤلاء تنتمي «الحمراء» وتنتسب. أحد فقراء العائلة تزوجها من قرية نزة المجاورة، تشتهر بجمال نسائها، بياض بشرتهن، واخضرار عيونهن وسماقة قوامهن، معظمهن ينتمين إلى عائلات مدقعة، لا يعرف أفرادها مذاق اللحم إلا من العيد إلى العيد، ومع ذلك رزقهن الله بنضارة وافرة، الدم يكاد أن يفط من وجناتهن،

وطلعهن مبهر، ملفت، معظم زيجاتهن من فقراء مثلهن أو مثلهم. ينظر القوم إليهم فى الكفور والنجوع والقرى المجاورة من مسافة، وثمة من يقول بانحدارهم من أجانب جاءوا إلى الناحية منفيين من بلاد بعيدة، وكان لسانهم غريبا فأتقنوا العربية بمضى المدة ودخلوا دين الإسلام. مثل هذه الأقاويل تزيد الثغرة وتبقى الفجوة وتعمق النفرة. ولأنها تنحدر منهن لم تشبه أى من اللواتى اعتدتهن. لا فى الحضور ولا الملامح ولا الطلعة، بعد خروج خالى إلى السوق، ومضى أبى إلى زيارة المعارف. عندما يكتمل إنفراد النسوة وأطفالهن بالدار، تظهر، لذلك اقترنت الساعة ما بين التاسعة والعاشرة بها. يؤطرها هذا الوقت، لا أراها فى لحظة تسبقه أو أخرى تليه، وإذ تبدو. يلزمها الزمن، فلا يتقدم ولا يتأخر. هكذا تنبثنى وقفتها، فوق السطح عندما تبزغ عبر فراغه، وتقف لحيظات لتنطق التحية، ولتطلب الإذن من ناحية أخرى، فربما لم يكن الوقت ملائما لقدومها، غير أننى لم أشهد ردتها قط.

«تعالى يا حمراء..».

عندئذ تقدم، تنزل درجة، درجة، مبتسمة، تسطع فارهة، هى لاغيرها التى تجىء من أعلى، تدخل إلى قلب المحل بدون طرق الباب، تتجه مباشرة إلى حيث الحاجة إليها، أمام الفرن إذا كان الخبيز بدأ، أو تقعد إلى الماجور للعجين، أو إلى الرحاية لتطحن الذرة أو القمح، أو لتشطف الغسيل، إلى هنا. إلى هناك. دائما مبتسمة، متطلعة، دائما ملبية، وإليها يتجه نحوى، منها أكون.

لا أقبل ، هى الآتية عندى باستمرار ، قادمة من عل ، هى لا غير التى تجىء عبر السطح ، جدتى لا تستخدمه ، ربما لتقدمّها فى العمر . امرأة خالى الشابة لا تذهب أبعد من البيت المجاور ، حيث بيت أبيها ، أما الحمراء فتجىء من بعيد . من نقطة لا أعرف أين تقع . لا يمكننى تحديدها ، لم أعاينها إذ إننى لم أصحبها خلال العودة قط . لم أعرف عدد الدور التى يجب أن تتخطى أسطحها حتى تصل إلينا ، صباحية طلتها . لا أراها فى المساء أو عند دخول الليل مع أنها مرة أمضت ليلة كاملة معنا .

على الجسر الممتد خارج جهينة ، الذى يحدد زمامها من الشرق . ظهر جمل قادمًا من الشمال حيث الطليحات وطهطا قاصدًا الجنوب باتجاه العمور ، المدمر ، الهلة ، حتى بندر سوهاج . جمل لكنه لم يكن مثل الجمال التى اعتاد الناس رؤيتها ، وغير ضخامة الحمولة من قصب السكر إلا أنه يمشى بطيئا ، متسقًا ، رشيقا ، قوائمه واثقة . وأخفافه راسخة ، له مضى ملفت ، موحى .

على الجسر عشة من البوص يقعد أمامها بعض العابرين ، أو من يريدون قضاء بعض الوقت بعيدا عن البلدة وشوارعها المغلقة ، ورحباتها المحدودة بالأبواب المطلة عليها . الجسر ينبئ بقدوم غير المألوف إذ إنه جزء من طريق ترابى ممتد ، منه تظهر «الحلزونة» الحافلة التى تربط بندر سوهاج بمدينة طهطا المركز مرة واحدة يوميًا ، تجىء مثيرة الغبار ، تميل تحت الثقل المكتظ داخلها ، صاحب العشة غجرى تخلف عن قومه ، لسبب ما بقى وحيدا . ينام فى العشة ويعد داخلها

الشاي والجوزة، ويتحدث إلى العابرين أو أبناء البلدة الذين يقصدون قعدته ويصغون إلى ما يرويه عن بلاد بعيدة، وأمور غريبة، أحد من اعتادوا الجلوس عنده عمر الطحان، يعمل في الوابور الذى يمتلكه الشيخ محمود أحمد، يقوم بتفريغ أجولة القمح داخل الفوهة الضخمة، ويصلح الماكينة إذا أصابها عطب. يوقفها ويشغلها، دائما يظهر وعليه ذرات الدقيق البيضاء، ورغم اعتياد الناس عليه إلا أنهم ينسبون إليه فظاظة، ويصفون عينه بالوحشة، له سوابق مجربة، الويل لو حط عينه في دقيق مطحون، أو رمى بها صبيا صغيرا أو صبية، بمجرد أن رأى الجمل مقبلا إلا وصاح.

«ياه.. عمرى ما شفت جمل مثله».

لم يذكر اسم الله، ولم يصلى على أفضل الخلق. صمت الجالسون. لم يعلقوا.. بما فيهم صاحب العشة الحلبي، مجهول الأصل والفصل، بعد أن تجاوز الجمل العشة بثلاث أو أربع خطوات تباطأ وصدر عنه شخشخة وحشرجة.

«الحقوني..».

لطم صاحبه، أحد الجالسين أخرج المطواة التى يقطع بها فصوص الأفيون قبل أن يزنها في الميزان الصغير، الدقيق، أدرك بسرعة ما يحدث، قبل أن ينخ الجمل على قائميه الأماميين عاجله، غبج المطواة من أسفل صدره بقوة، قاصدا قلبه، نزف الدم مكونا بركة صغيرة، أرسلوا إلى حميد الجزار، جاء من بيته بعد أن كان يتأهب للرقاد، بسرعة بدأ العمل، أدار صاحب الجمل ظهره. قعمز جالسًا، مسندا رأسه إلى راحتيه، مرددا «يا كسرى.. يا كسرى..».

بسرعة فُكت الحمولة. بدأ تقطيع الجمل وسلخه، صار الشراء، بالكوم، لا يدرى أحد كيف سرت الأخبار في ربع حسام الدين، الأقرب إلى موضع سقوط الجمل وذبحه، جاء خالى بقطع اللحم الطازجة. قال إنها من أفضل الأجزاء، الدنيا حر، لذلك كان لابد من طهى اللحم فى نفس الليلة. سرعان ما بدأ السلق والشوى.. علقت الرائحة في الفراغ، عبق على غير انتظار نادرا ما يفوح إلا من السنة إلى السنة، فى عيد الأضحى، قيل إن الجمل بيع بثمن بخس، أقل من سعر سخل صغير، البعض لم يدفع نقوداً، رمى فى حجر صاحبه قمع سكر أحمر، أو قدح غلال. أو سيجارتين، بدا الرجل ذاهلا. لم يرد على أى إنسان، كل ما تلفظ به.

«يا كسرى.. يا كسرى..».

بسبب الموقف الطارئ ظهرت الحمراء، لم يستدعها أحد، لا بد أنها قدرت، جاءت فى الوقت المناسب، وعندما عادت إلى السطح بعد منتصف الليل كانت تمشى حذرة، ليس بسبب العتمة فقط، إنما لحمولة يديها، قدر الفخار المليء بمرق ترقد فيه هبر لحم طازج أجمع كل من ذاقه أنه لم يعرف مثيلاً له. فلحم الجمال صغيرة السن نادر. يسمع به القوم، ولا يقدر عليه إلا الأثرياء المتمكنين، موصوف، مجرب، واسمه بعرور. علقت الرائحة الكثيفة بالفراغ وبالأيام التالية. السنوات التى تتوالى، ما بقى عندى، خصوصيتها، وقدوم الحمراء ليلا، فى مدة لا سابقة لها ولا عقب تبعها، لذلك لم يرتبط هذا التوقيت بها لأنه استثناء، القاعدة صباحية.

سماء منخفضة حتى لتطال جدران البيوت، منغلقة على لحظة تتبعها. غير مفتوحة على ما عداها، تشملها فى كافة أوضاعها التى تردنى وتبدو لى. قاعدة أمام الفرن، إلى ماجور العجين، واقفة فوق، طالعة الدرج، تفرغ قمحا من الصومعة، أو تخض قربة الزبدة، أو ترص الأرغفة فى القفة التى ستصحبنا أو نصحبها إلى مصر. ما بين السطح والفناء، الفناء حيث مكمنى. موقعى الذى أسدد منه بصرى الأول.

الفناء، الفرن إلى ركنه الأيمن، يليها على مسافة خطوة الصومعة التى تحفظ الغلال وثمار الدوم الجافة، فى مواجهة الداخل من الباب غرفتان متجاورتان للنوم داخلهما شتاء وأمامهما صيفا، فى الثانية من اليمين، وُلدت، إلى يمين الداخل مباشرة، تحت السقيفة حجرة عتبتها مرتفَعة بالنسبة إلى الحجرات الأخرى، مخزن لأجولة القمح والذرة والفول، فوق، غرفة مواجهة للسطح الذى تظهر فوقه الحمراء، يؤدى إليها سلم مقابل، غير مطروق إلا لمن يقصد المكنون، لا أرى الحمراء فوقه، لا أراه، لم يقترن بها. من خلال كوة صغيرة يمكن للواقف وراء الجدار أن يرى الوجه، ولا يمكن للمار فى الخارج أن يلمح منه ولو خصلة شعر.

من السطح المقابل، من الغرب تجىء، تهل على أيامى تلك. بزوغها مفاجىء، نزولها السلم سريع، عيناى تلازمها منذ ظهورها وحتى غيابها، تكف عن أى شهيق أو زفير لو تطلعت ناحيتى بغتة مبتسمة. أتعمد الجهامة، غير أن الرضا يغمرنى إذ تقبل ناحيتى،

عندما تلتفت إليّ تبتسم، أكثف اللامبالاة، غير أنني لا أكف عن اختلاس النظر إلى وجهها، مركز سطوع، ضياؤها داخلي ممتد، أمضيت أكثر من نصف قرن أكتشفها باستمرار في كل مرحلة. ومع كل حقبة يتكشف لي جديد. لو قدر لي السعي قدر ما عشته حتى الآن. أي ستة وخمسون أخرى ـ وهذا محال ـ أثق من تجدد سائر ما يتعلق بها رغم التباعد القائم والجهل بمصيرها. غير أن هذا حديث سابق لأوانه.

إذ تبسط يدها نحوي، تبتسم لي. أدخل في محيط عطرها، عبيرها خاص، أول فواح أنثوي ينفذ إليّ، لم أقرن به أي نسيم آخر، تماما مثل نزوعي إليها، أيضا لم يكن له سابقة عندي، فليس قبله قبل، ليس له مرجع، لأنها مصدر وقياس لا يمكنني مقارنتها بغيره، إنها جوهر القرين، أول خفقة. مفتتح المادة كلها. رغم طرحتها يميل شعرها الناعم، السبساب الطويل، إلى صفرة مختلطة بحمرة مع سواد مؤكد، فإذا رأيت شقراء قلت مثلها، وإذا وقعت عيني على فاحمة السواد نسبتها إليها، فكأنها لون الألوان.

جلابيبها طويلة، مشجرة، تنسدل على قوامها الفاره، طويل بغير إفراط، تبدو نحيلة لكنني استعدت انحناءاتها عندما قابلت من تنتمي إليها في موضع متقدم، وزمن بعيد، فرأيتها عامرة. عيناها تميلان إلى اخضراء، لعلهما أول حدقتين تبثان اللون الأخضر بانتظام بثبات مريح اسمها «الحمراء».

الحمراء راحت، الحمراء جاءت، الحمراء طبخت، الحمراء غسلت، الحمراء نفسها طيب، يا حمراء تعالي، يا حمراء روحي.

اسم أو صفة، أنتبه الآن أثناء تدوينى هذا إلى الأثر الصادر عنها باللون الأحمر، وجهها يرشح به، فرادة لونها وحتى ابتسامتها صوتها، كل ما ينتمى إليها يؤدى إلى الشفق، إلى تدرجات وأطياف نابعة من حريق كونى بعيد، لا يهمد إلا ليبدأ، ولا يخمد إلا ليندلع أواره، حمرتها إشارة إليه ورشحة منه.

لم أفصح عما تردد عندى، خشية أن تلمح أمى وجدتى وامرأة خالى. بالذات أمى التى كنت أخفض صوتى حتى ألزم ما تنبه علىّ بضرورة التقيد به، لا أقدم على فعل إلا ما يرضيها.

ألزم الركن المواجه للفرن، يكفينى النظر إلى الحمراء، متابعة حركتها التى تضفى على البيت أنسا وتغمره بما يكفينى ولا يدفعنى إلى الخروج سعيا للعب مع أبناء الناحية من أقرانى فى الرحبة. أمى حذرتنى من تجاوزها إلى الطريق الواصل بين المشرق والغرب، حارتنا القاهرية سد لا تؤدى إلى أخرى، مدخلها واحد، لكن الرحبة تتصل من الناحيتين بطريقين، الأول: رئيسى يؤدى إلى الجبانة غربا، وإلى النخيل شرقا ثم الجسر، والثانى: فرعى، أضيق يفضى إلى حارة النصارى، أحيانا يظهر الغجر أو كما يسميهم البعض «الحلب»، يسرقون الأطفال، لا مقر لهم ولا مأوى ثابت، أيام الأسواق بالذات تحوشنى أمى. يتوافد غرباء ويدخل إلى الربع من ليس منه، إذا صحبت جدتى فلا تفارق يدها يدى، لكم تقت إلى مصاحبتها، لكن بعد ظهور الحمراء عندى صرت أتوقعها، عند رقادى أتعجل انقضاء الليل، ولحيظات بدء إغفائى ألمحها قريبة منى، أتوق إلى زيارتها

مناماتى، طوال فترات غيابها أثق من رؤيتها لى. إنها قريبة، فى مكان لا يمكننى تحديده أو تعيينه، تنظرنى، تتابعنى، لذلك يجب الالتزام، هذا ما صرت إليه فيما بعد عند وقوعى أسير هوى أو بدء جذبتى، مهما ابتعدت أو قربت، عرفت من يقمن فى ديار نائية. بلاد غير بلادى، وغير ذلك إذا مشيت فى مدينتى أو حتى داخل بيتى أراعى ولا أفرط. أحرص. لا يبدر منى إلا ما أتصور أنه سيلفت نظرها. ولا أبدى إلا ما أرضى عنه، ثمة من ترقبنى من موضع ما، من توقيت معلوم، تقتفيان أثرى وترقبان كافة ما يصدر عنى.

إلى الحمراء تمت أصولى كافة. إذ تداعبنى أخفض صوتى، إذ تولى عنى أتعلق بها. كأن الحضور كله مرتبط بها. أقتفى أثرها عند صعودها السلم، وإذ تختفى يبدأ هجاجى، أوشك على البكاء لأبقيها لحظات فى مدارى، لكننى لا أفصح، ألزم، أستدعيها بمخيلتى، يصير حضورها عندى أقوى وشاغلى بها أمتن، وهذا أيضا ما غلب علىّ فيما تلى ذلك، بالطبع لم أدرك ذلك إلا بعد انقضاء مراحل، والمرور بأطوار، فشوقى متصل بالبعيد أبدا، ونزوعى إلى الغائب بعد تفرقها على من عرفتهن، وبحثى عنها فيما يمت إليهن، عند كل منهن شيء منها، وعنصر، أحيانا يظهر وأحيانا يستعصى على إدراك الحواس كافة.

رشحة الآتية

دائمـا آتيـة . قـادمـة ، إمـا من داخل الـدرب إلى خـارجـه ، أو من خارجه إلى داخله غير النافذ ، ينتهي بعد العطفة ، حيث مدخل بيتين متجاورين ، في أحدهما تقيم ، آخر الدرب بيت مدخله من شارع قصر الشوق ، لا نرى منه إلا نوافذه الخلفية ، ومقاطف معلقة تطل منهـا ثمرات الثوم المجفف أو البصل ، كثيـرا مـا يظهـر محـمـود الأخرس ، يطل من نافذة مستطيلة بالطابق الأخير ، ابن بائع لبن شهير ، دكانه أمام مسجد سيدنا الحسين ، كبير الدماغ ، أصلع تمامًا ، يقضي وقتًا يتفاوت قصره أو طوله في إطلاق أصوات ، مزيج من الزغاريد والزعيق الغامق ، يأتي بحركات بعضها فاحش . إذا ظهر يغلق كل من يحترم نفسه بيته ونوافذه ، يستمر إلى أن يدركه أهله ، يغلق أحدهم المصراعين ، ثم تعلو صرخات ودربكة يعقبها صمت يبدو أنهم يغادرون ويبقى بمفرده فيحدث منه ذلك . معروف ناحية قصر الشوق وأم الغلام وحتى ميدان سيدنا ، مشهور بقوته الخارقة ، قدرته على جر عربة نقل بأسنانه ، أما فحولته فأمرها ذائع ، بعض النساء يستدرجنه بحجة قضاء حاجة ويقدمن على غوايته ، لن يفضح إحداهن ، ليس لأنه أخرس ، لكنه أبله أيضًا ، من سيصدقه حتى لو نطق !

تسكن البيت الأقرب إلى دار الأخرس، آخر بناية في الدرب، بالتحديد في الطابق الثاني، نوافذه مستطيلة، به شرفة، الطابق الأول يخلو من الشرفات لقربه من الأرض، فيه أقامت «علية»، جرى معها شأن، ليس هذا موضع مناسب لذكره، أما نادية فتسكن الثاني. شقة لا أعرف كيف تبدو من الداخل، لم أرها. لم أدخل أى شقة في هذا البيت، منه تجيء دائما. أتوقعها أثناء وقوفي في الشرفة، عند قدومي من الخارج، توقيتها العصر، معظم المرات التي طالعت هلاتها كانت عصرا، إنها شهور الصيف أيضا، يبدو أنها تقضي الصباح والظهيرة في البيت تخرج عند العصر. لذلك أقف في الشرفة أترقب وأهفو منذ أن لاحظتها أول مرة، تقع شقتنا في الطابق الأول، في نفس المستوى الذى تسكنه، وربما هذا ما يجمعنا بعد رؤيتي وسعيها في الدرب.

على مهل تجيء، تظهر عند العطفة، تخطو وسط الحارة، ليست بالقصيرة ولا بالطويلة، أمرها وسط، عنقها سارح، ملامحها متسقة، تتوزع ما بين بياض بشرتها وسواد ردائها. إذ كانت في حداد على والدها. هذا مقامها من الألوان عندى، لا أستدعيها إلا من خلال بياض وسواد.

كيف السبيل إليها إذن؟

ما قبل نومي مخصص لها، تدرجي من اليقظة إلى الوسن، أرتب الأوضاع والمداخل، تأتي وأقترب منها، مكان بدون ملامح محددة، يمكنني من الحديث إليها مباشرة بدون خشية أو وجل، أى لا يعرفني فيه أحد. وحيث لا يوجد من يحيط علما بأني أتصرف كما أريد

وأقدم على ما أهوى وأرغب بدون وجل . دائمًا أنضبط فى مدينتى ، ربما رآنى من يعرف . لكننى عندما بدأت أجوس الديار البعيدة صرت إلى تلقائية وسفور أمر . شرط بوحى التخفف من القيود والأرصاد .

أتقدم منها ، بعضا من مشاهد الروايات المترجمة ، التى عاش فرسانها فى قرون ما قبل الثورة الفرنسية ، عندما يقرر أحدهم الاعتراف لمحبوبته بحبه العفيف ، الطاهر ، اعترض طريقها محتفظا بمسافة ، أطلب السماح بالمثول ، أنطق اسمى ، أن أتحدث إليها ، فقط . . الحديث . إذ تتطلع إلىّ يلوح الإذن فأنطلق :

إننى متيم ، متطلع ، أسير بهائها ، مستعد لتقديم أى عون تطلبه منى ، مستعد للمضى إلى حد التضحية بنفسى من أجلها . .

أقوم أحيانًا . أنطق بصوت مرتفع ، أنحنى ، أكاد المسها لشد استدعائها بمخيلتى ، تتطلع صامتة ، لكنها ممتنة ، لا يطول توقفها كثيرا ، تستأنف الحركة فأنحنى عند مرورى بها باسطا ذراعى على امتدادها ، ممسكا بقبعة لم أرتدها قط .

فى الحارة لم ألتق بها إلا أثناء حركتها ، حدث ذلك مرة أو مرتين عند قدومى من الخارج وذهابها ، تتماس نظراتى بطراوة عينيها . نداوة طلتها ، ملاسة بشرتها ، نتفة من لحيظة ، لكنها تطق عندى وتوقد نارًا ، تضرمنى . هى دائمًا آتية ، والقادم دائما إلى ذهاب ، إلى غياب . هل جرى لقائى بها حقا أم أنها أمنياتى المندمجة بالذكريات المتوارثة ، المتراكمة؟

تتماس ملامحها بالاسم، صارت علامة دالة على كل سمية لها التقيتها، أو اللواتي آنست منهن شبها. مثل شقرة شعرها، أو طلة خصيلاته على جبينها، أو سرحة عنقها إلى أعلى، منطقة تصل المافوق بالأسفل، الرأس بالصدر، اسمها منح صفاتها لكل من التقيت بهن فيما بعد. أو قرأت عنهن أو سمعت إن في شرق أو غرب. عبر محطات عدة ما أن يصغي سمعي إلى «نادية» حتى تمثل أمامي، وتصل عندي، تماما كما رأيتها ولي من العمر ثلاثة عشر عاما أو أربعة عشر عاما، تجيء بهيئتها العامة، لايعنيني غياب التفاصيل، كانت ممنومة، متناسقة الجهات، متناغمة الأركان، اسمها أقوى ما تبقى بعد هلاتها، ظهورها الناعم. كل «نادية» هي، يكتمل استدعاءها بمجرد ذكر الاسم، هذا ما غلب عليّ. ليس بالنسبة لها، إنما شمل من أنزلتهم عندي مكانة وارتويت بطلاتهن، وأججن مخيلتي بالسعي إليهن والرغبة في البث، سعاد منهن كذا مجد وكاميليا وعزة وميرفت وميس ومنتهى وسندس وفاليريا وغيرهن ممن يلحن في أفقي عند تقليبي وتفحصي ما جرى وما بقي.

أعرف القوة الكامنة في الاسم. كيف يمنح صفات معينة لصاحبه، كلما تردد، فهذا يعني البقاء بصورة ما حتى بعد تبدد الكينونة الحافظة، ولي فيما يتصل بالاسم تدوين طويل مفصل ليس هنا مجاله. غير أنني أؤكد ما أدركته، ليست نادية عندي إلا اسم، مجرد نطقه أو سماعه أو قراءته تأتي. لها سعي ومنها إقبال. وطلة متسائلة، حزينة.

أقصى مستحيلي وقتها أن أترصدها خفية حاملا آلة تصوير،

كموني في موضع لا يمكنها رؤيتي منه. إذ تلج بؤرتي التقط الصورة التي تكفل مصاحبة ملامحها لي، استعادتها عندما أرغب، لكن لم يتفق لي ذلك، تكفل اسمها باستدعائها، فليس ما يثيره عندي «نادية» مثل الذي يعنيه هند.

كيف أساعدها هي اليتيمة؟

أوقات أحاول تلمس الوسائل، لو أنني أكبر قليلا لتقدمت إليها، لبسطت أمري عندها، لكنني مازلت أوليا. لا امكانية إلا التخيل ولا قدرة إلا التمني. عرفت مثل ذلك عندما أصغيت إلى جدتي تقول:

«مسكينة الحمراء.. زوجها طلقها..».

أصغيت من مرقدي. أبدو لهن نائما، غير أنني كاتم شهيقي وزفيري، متطلع جياش، الأمر يخص الحمراء، والشفقة بادية في صوت جدتي ومصمصمة شفاه أمي.

«أولاد الحلال يبحثون لها عن زوج.. البنت حلوة وفيها الطمع..».

هنا لم أستطع صبراً، انبثق صياحي..

«لا.. لن يتزوج الحمراء غيري..».

تطلعن ناحيتي ذاهلات، مالت جدتي نحوي.

«بسم الله عليك وعلى أختك اللي أحسن منك.. مالك يا حبيبي».

نفرت إلى الوراء زاعقًا .

«لن يتزوج الحمراء أحد غيرى . . » .

تبتسم أمى ، تتحول الخفة إلى دهشة سارة ، أقعد مواجهها ، غير مبال ، ألمح حنوا فى نظرات أمى .

«طيب نام يا حبيبى . . وأزوجها لك فى الصباح . . » .

على امتداد زمنى التالى أستعيد ما جرى تلك الليلة ، أرى ارتجاف اللمبة الساروخ ، الغريب أننى لم أخجل رغم إفصاحى المباغت ، من ناحيتهن اعتبرن ما قلته شغل عيال ، وربما أدركت أمى مشاعرى المبكرة .

«الحمراء طلقت . . » .

«الحمراء مسكينة . . حظها وحش . . » .

كيف أساعدها ، كيف أمد العون؟

إنها الحمراء إذن!

كم من حقائق أدركها أثناء تقليب ما كان منى ، ألم بها متأخرا ، كم من أمور ما تزال مستغلقة علىّ ، سأمضى بدون الوقوف عليها ، أثق أن ما أجهله أكثر مما عرفته ، يكفى ما أتحرك به وما أسكن عليه داخل حسى وفى ثنايا نفسى؟ لعقود متتالية ظننت نادية مصدر ، لكننى أدرك من خلال هذا التسطير أنها ليست إلا رشحة منها وترديد . أبدأ بالتساؤل : هل هفوت نحوها وملت لأنها كانت آتية دائما ، تدخل

مجال بصرى عند قدومها من داخل أو خارج، تماما مثل ظهور الحمراء فوق السطح.

هل حدد بزوغ الحمراء أول شرط عندى لتحقيق ميلى؟

أن تأتى!

لا يمكننى القطع، لاح ذلك أثناء تدوينى. لكننى أميل شيئا فشيئا كلما توالت علىّ الهلات الأولى لكل من عرفتهن، وجرى لى معهن شئون ومجريات أمور، بالطبع تجد عوامل أخرى، لكن ثمة ما يمت إلى الحمراء دائما وأيضا من يتبعنها، تتداخل العناصر وتتوالج الأسباب، لكن عندما ظهرت نادية لم يسبقها عندى إلا الحمراء، إنما أودعت كل منهن أمرا مستجدا إضافة إلى ما استنفرته من عناصر كامنة.

انقطع مجيئها. كف قدومها. طال وقوفى. لم أعد أبلغها. عرفت الوحشة مع تمام الغروب وخلو الحارة من الأطفال والباعة. وتردد أصوات الليل المتباعدة خاصة مع تناول العشاء، وأصداء بعيدة مجهولة المصدر، أرتد إلى الداخل، أرتب كلمات عتاب أنطقها عند ظهورها. لن ألزم الصمت، لن أطرق متواريا وكأن سريانها لايعنينى. لن أخفى. غير أن أياما توالت بدونها. بعد تناولنا العشاء وخروج أبى لقضاء حاجة ونوم أشقائى جلست إلى أمى، تخبرنى بأحوال الحارة وأحكى لها عن زملائى فى المدرسة، اعتدنا ذلك. فى زمن أقدم، كنت أجلس إلى جوارها بعد عودتى من مدرسة عبدالرحمن كتخدا الابتدائية، أحكى لها عن معارك خضتها. جيوش

هاجمت المدرسة. وكيف تصدينا لها. وأنفاق تكشفت لنا عندما عثرنا أثناء اللعب، وتمكنى من رؤية مـدينة تحت الأرض، لكنهم منعوا ذهابنا إليها، كانت تصغى أثناء غسيلها الثياب أو طهيها الطعام، تبدى دهشتها أو إشفاقها أو جزعها، لكنها لا تسخر ولا تظهر التكذيب.

حرصت ألا يشى صوتى بأى فضول عندما استفسرت عن البنت اليتيمة التى لم تخلع السواد بعد رحيل والدها. مجرد سؤال عارض، غير مقصود.

قالت إن القلوب خلت من الرحمة، صاحب البيت اضطرها إلى الذهاب بعد توقف أمها عن دفع الإيجار، الشقة كبيرة ولم يعد لهما مورد. أبوها كان موظفا صغيرا فى محل يبيع القماش بالحمزاوى، لم يترك لهما معاشا ولا موردًا..

رشحة المدبرة

لم أدرك التشابه بين الصوتين إلا بعد انقضاء اثنين أو أربعة وأربعين سنة ، الممت بالصلة مع أن ورود الصوت على الخاطر والوعى به أو استعادة إيقاعاته وخصوصياته مما يشق على النوع الإنسانى . لكم بذلت الجهد لأسترجع أصوات من كانوا ملاذى ومستقر هواى . لكننى أرتد حسيراً ، لا قبل لى ولا قدرة بالملاحظة والمعاينة أيقنت أن الأصوات أول ضحايا النسيان . أول ما يدركه الطى وآخر ما يمكن استعادته ، فكيف بزغ عندى ما صدر عنها واستوعبته منذ سنوات طوال نتيجة مؤثر عابر!

«يا خديجة . . يا للا انزلى . . » .

أول ما عرفته منها ندائها على صاحبتها ، سارى ، ممتد ، يبدأ حيث لا يمكننى التحديد ويمضى إلى حيث لا يفنى ولا يستحدث ، كأنه علامات مائية على الماء . كيف يمكن التعيين؟

مكانها مؤطر بزمانه . ولأن وقتها ولّى فقد راحت مواضعها كلها ، رغم أن الحارة باقية ، المدخل والمنحنى والعطفة والبيت الذى أقامت به ، والبيت الذى رفعت وجهها صوب شرفاته ونادت ، الزمن يولى والمكان أيضًا . وهذا أمر دقيق ربما فصلت الحديث عنه ولكن فى غير هذا الموضع .

دارها مواجهة للفرن، ثلاثة طوابق، لا يسكنها غريب، ثلاثة أشقاء، عمها حمدى أفندى مدرس اللغة العربية، أصلع، يحيط حضوره بمسافة تفصله حتى عن المقربين، جاحظ العينين قليلا، أبوها موظف فى متجر قديم بشارع السكة الجديدة، يبيع القمصان والملابس الداخلية والجوارب والمناديل والطواقي والعباءات من القطن صيفا والصوف شتاء. يقصده أبى قبل دخول المدارس، يصحبنى مع شقيقاى أتطلع إلى أدراج الورق المقوى ذات المقابض المعدنية، داخلها القمصان والسراويل والجوارب، لم أعرف مثلها إلا فى متجر عوف للأقمشة والملابس الجاهزة القديم، الكائن بحارة الحمزاوى لكنه استبدلها بأدراج حديثة منذ حوالى عشر سنوات، لكن ما يشبهها باق فى باريس. دعانى صاحب حميم إلى غداء فى مطعم قديم يحتفظ بتاريخ افتتاحه فى منتصف القرن التاسع عشر، مطل بواجهته على شارع الأمير، بالحى اللاتينى. لم أتوقف عند اللوحات العتيقة والإعلانات القديمة عن سلع بطل إنتاجها ولا عند الأثاث القديم، أو نباتات الظل المبهجة. أو الفراغ الكثيف نتاج توالى الوقت على مكان محدد لم تتبدل هيئته كثيرا، إنما اتجهت إلى نهاية الصالة الكبرى، توقفت أمام الجدار الذى يفصلها عن الصغرى، أدراج متراصة ثابتة، ترتفع إلى حد يتجاوز قامة إنسان معتدلة.

عين الأدراج، من الورق المقوى، مقابضها معدنية كأنها صيغت من ذاكرتى، كأن المصدر واحد، تنسمت الرائحة ذاتها، أقادمة من شارع السكة الجديدة أو من شارع الأمير؟

يبدو أن ما تعاقب على ملامحى لفت نظر سيدة ضخمة، متناسقة الملامح، عذبة الابتسامة، جاءت تخطو ناحيتى، الوحيدة التى ترتدى ثوبا أسود قصيرا ينتهى قبل ركبتيها، أستفسرت عما إذا كنت أود السؤال عن شىء محدد. أشرت إلى أدرا ج الورق المقوى. مدت أصابعها لتمسك بالمقبض. بدلا من الملابس، رأيت مراقد ثلاث زجاجات من النبيذ، ممددة، آمنة، يفصل كل منها عن الأخرى حاجز رهيف من ورق قديم.

«منذ متى. . ؟».

«منذ عام أربعة وخمسين وثمانمائة و. . . ».

«يعنى منذ قرن ونصف تقريبا. . ؟».

بالنسبة لى تبدو المدة أبعد، تمت إلى بداية مجهولة لا يمكن تعيينها. لم تحد عيناى عن الأدراج، كأن والدها سيلتفت، يسحب أحدها ليتناول منه قميصا يناسب مقاسى. أو سروالا أو جوربا. صرت أجىء بمفـــردى وأحـرص على الجلوس فى ركن أرى منه الأدراج المصفوفة متسائلا عما يحكم الذاكرة، لماذا تحتفظ أحيانا بومضة، لحظة مساحة ضئيلة، أو شىء ما لم نتصور قط لحظة معاينتنا ورؤيتنا واستيعابنا له أنه سيبقى معنا أبدا، لماذا تمحى أمور وتبقى أخرى، وماذا سيظهر عند التأهب للرحيل. وأى مشهد سينتهى البصر الحديد إليه؟ من يرتب، من يحذف، من يُبقى؟

إذ ترانى المشرفة الضخمة عند المدخل، تتهادى صوبى، تمد يدها

تدعونى، وفى الوقت نفسه تشير إلى الأدراج، لا تعرف ماذا يعنى لى ذلك، لكنها أدركت اهتمامى، وأن ثمة أمرا تثيره الأدراج عندى، لا ألمحها إلا أرى والدى فى مواجهة أبيها. عرفت اسمها كاملا برؤيتى له وتعرفى عليه. إنه العم أحمد الحسينى. أبوه. . أى جدها يسكن الطابق الأخير. لا يخرج إلى الحارة إلا نادرا، دائما متوكئا على عصاه، أمره معروف، ذائع فى الجمالية والحسينية والدرب الأحمر لقدرته الفريدة ومهارته فى أمر دقيق، مازال قادراً عليه رغم انحناء قامته وثقل سمعه. خلف البيت يمتد فناء يمارس فيه ما اشتهر عنه. إذ كانت لديه الإمكانية على تحنين الخيل والجمال التى تستعصى على التلاقى المثمر للإنجاب. عنده حصان مؤصل. نسبه ثابت، سمع به الملك فؤاد وكان هاويا لنوادر الخيل، عارفا بها، وله عيون تنبشه بالأصائل منها، أرسل يستدعيه وكان يوما مشهودا عندما شق من الجمالية إلى قصر عابدين عبر شارع الغورية وتحت الربع وباب الخلق، عاينه وملس على رقبته، وأطعمه السكر لكن الجواد الكريم لاذ بصاحبه ودلدل رأسه ونبش التراب بحافره الأيمن، مما دعا كبير الياوران يهمس فى أذن جلالة الملك ألا يصر على إبقائه فى القصر، فلو غابت الشمس عنه هنا لن تشرق عليه حيا. من الأفضل أن يبقى عند صاحبه ويمكن إرسال الإناث الكريمات إليه، أولا وأخيرا ليس الحسينى إلا فردا متواضعا من الرعية، المهم . . سلامة الجواد.

عندما تقرر إزالة مقهى الفيشاوى عام تسعة وستين وتسعمائة وألف، لم يتحمل صاحبها الحاج فهمى رؤية أول معول يبدأ هدم الجدران التى استند إليها، وأنها، الفراغات المظللة بما تحمله من عبق

نعناعي وعبير شاي وقهوة وجنزبيل وسحلب وأشربة مختلف ألوانها . وتنباك عجمي ولاذقاني وعدني . مال رأس الرجل في قعدته فوق الدكة المستطيلة تحت قفص الحمام ، وعلى مقربة من مربط جواده الأشهب الذي كان لخروجه راكبا يوما مشهودا يكاد الناس بدءا من ميدان الحسين وحتى باب النصر يرقصون على إيقاع خطواته .

الحاج فهمي مات بالحسرة ، لكن بماذا يفسر القوم رحيل الحمام؟ كانوا سبعة ، ثلاثة ذكور وأربع أناث قمريات ، أما الجواد فهوى بعد أن كان يمضي الساعات الطوال بقرب صاحبه أنثنت قوائمه ولم تعتدل قط . حتى الآن يستعيد الخلق ما جرى بدهشة ، ولكن ما لا يعرفه كثيرون أن الجواد من سلالة الأصهب النادرة ، ولولا صلة وثيقة بين جد سعاد والحاج فهمي لما حدث اللقاح الذي أثمر هذا المؤصل .

كان صهيل الأصهب يتردد في الحارة ويتجاوزها إلى درب المسمط وشارع قصر الشوق . يثير النساء ويؤلب الرجال ، يجبر الكافة على الإصغاء والتروي لإعلان الرغبة المحمومة . كان جدها قادرا على تحنين الفرس الحرون وإثارة شبقها إلى حد يدفع بها إلى أقصى انفراج ميسر ، يتقن أمورا لم يفصح عنها حتى لشقيقه ولولديه أحمد (والدها) وحامد (عمها) . ذاع صيته باعتباره أفضل من يؤلف بين الحمار والفرس لإنجاب بغل ، يستغرقه تماما قفز الجواد الأصهب في الفراغ مطاولا بعنقه أعلى الفراغ محاولا المرة تلو الأخرى إيلاج القضيب المستوفز في الفرج المرطب بماء الدعوة الآمن ، المتهيأ المستكين عند لحظة معينة يمد يده ، لابد أن تصغى الأنثى إلى النفرات المتتالية

والمحاولات المتداعية حتى يكتمل تأهبها وتسللك . يرشد بأمانة ودربة فتقع الغاشية ، أما خبرته بالظروف التى يمكن للجمل أن يضاجع خلالها أنثاه فلا يقارن به أحد ، حتى أن بعض تجار الجمال يجيئون عبر درب الأربعين من السودان قاصدين درب الطبلاوى ليقدموا إليه إناثهم المستعصية . معروف أن الجمل صعب الأحوال ، لا يقدم إلا بعد اطمئنان تام وتأكيد قاطع أنه ما من غريب يرقب أو بصر ينظر ولو من بعيد عدا جدها ، كان يقترب ، يمرر أصابعه بمهارة ودربة ويهمس مالا يعرفه أحد ، عندئذ تصدر الهرهرة ويقع التواليج الأتم ، يسود الحارة كلها صمت متواطىء ، راغب . كل يقتدى ويتمنى . أحد الباشوات من أقطاب الحزب الدستورى وصله أمره ، أرسل فى استدعائه إلى قصره بالجيزة . أصغى صامتا إليه شكا الباشا ارتخاء أعصابه وما نزل به من وهن ، تبسط معه حتى أفضى بدقائقه ، البنت صغيرة وجميلة ، يخشى عليها . له ما يريد إذا مكنه وستره معها ، غير أن رده كان سلبيا . اعتذر ، قال إن للإنسان درب ، وللحيوان درب ، وما يصلح هنا لا ينفع هناك . قال الباشا إنه يحترمه أكثر ورجاه أن يستره . لكن كيف تناقل الناس ما وقع؟ لا أحد يدرى ، هى حفيدته . لصوتها شرخة تتمرمر فى مسرى دمائى ، إذ تنادى صاحبتها يقع استنفارى ، أستدعى حضورها بتلك السلخة ، كذا قوامها المشرئب ، كأن صلة ما تربطها بالأصهب ، ربما توحمت أمها على الحصان المنسب ، من يدرى؟

«ياخديجة . . !» .

ليس نداء ، ليس صوتا . إنما زهو وانبثاق ضوء مصهور ، شعاع

لا يتوقف عند خروجه مكتملا من حنجرتها. إنما يستمر مصعدا فى الفراغ، ويستقر فى مكامن الذاكرة ليباغتنى بعد أكثر من أربعة عقود، يناديني مني، ما بين صحوى وغفوتى، عفيا، متقدا، محرضا الفراغ ذاته، تماما كما أصغيت إليه المرات الأولى، مع أن صاحبته ربما لا تكون مقيمة فى هذا الوجود الحاضر لحواسى.

«انزلى بقى..».

يلغى ما عداه، يشمل اللحظة والموضع المدرك منه والخفى وكافة ما يصدر عن المحسوسات، زميلتها أقصر منها، ممتلئة، عادة تجيبها بعد أول نداء، أحيانا بعد اثنين، لم يعلق بذهنى أى أثر منها، صوتها خافت، مسطح، ذو مستوى واحد، لا يمر خلالى، إنما إلى جوارى أو بعيدا عنى. ليس فيه ما يدغدغ أو يرقرق بعكس الآخر، أقصد الأول.. إنه محرض، دافع إلى سبل النشوة، إلى مبادئ الشهيق. مطلقا النخرة والشخرة، يسمس ما لا يمكن رصده، يدفعنى إلى محاولة الركض، إلى أى اتجاه؟ لا أدرى.

توحد النداء بقوامها، لا يصدر عنها ولا تطلقه إلا إذا كانت واقفة متطلعة مشهرة غصنها السرح اللدن، المثقل بثمارها وشرافات طلعها.

تقف عند المدخل، تتراجع إلى الوراء. يتكئ قوامها على الفراغ الملامس لظهرها ورد فيها، يتحدد بروز صدرها المكين، ما بين العلو الأمامى والسفل الخلفى تناسق مريب، غريب فكأنهما صنوان. انفصلا واتصلا. إلى الطول المتناسق تنتسب، مماثل لقوام الحمراء

السيسباني . تتقن أشهارها ، أنه الوضع الذى تتأهب خلاله لتنادى ، لتطلق مويجاتها ، لا يستغرق النداء إلا مقدار نطقه . لكن ما يخلفه عندى كثير بعضه كامن وقليله ظاهر .

لحقنى صهيلها فى أماكن وأويقات وأوضاع شتى ، أدركنى مقيما وراحلا ، ممسيا ومصبحا ، غسقا وشروقا ، إذا كنت راكداً أخف ، وسنا أصحو ، راقدا أقف ، شاردا أنتبه ، واقفا أقعد ، لكم شسعت أمكنتي المحدودة لحظات استلامي أصدائها ، تتخلل خباياى ، أغمض عيني فأرى ما لم أدركه طول تحديقي ودنوى ، بعد أن تنائينا مع مضى الأحوال وتبدل الأزمنة وبلوغي ديار لن تحل بها ولن تنزلها ، وإذا وصلت إليها لن تدرك أبدا أنني حللت بها . هذا شأن كل غريب . عابر ، غير مقيم . نفذت إلى شغافي ومست حناياى . بلغت منى ما لم أبلغه عندى ، إذ أسمعها فجأة لا أميز الحروف الصادرة ، لكنها هى ، أصداء غامضة ، تستعصى على وعيى إذا قصدت استعادتها لكنها تباغتنى حيث لا أتوقع ولا أتخيل . بداية النسيان ضياع ملامح الأصوات ، بل يمكنني القول الآن بانتفاء وجود ركن ركين تأوى إليه الأصوات ، لكن أحيانا يباغتنى المفقود . كأنه يفلت من حدود عالم غامض ، يصبح مفردة من الهواجم ، لا يستغرق المروق إلا لحيظات يصعب رصدها . لكنها تشعل حنينا لا يهدأ ، كثيرا ما باغتتنى فجرا . تنادى فجأة . قادمة من الصمت إلى الصمت . دائما فى التوقيت غير المتوقع . فى الزمن الذى لا أقدر على احتسابه . عندما تتداخل الحدود ويشق علىّ التعيين ، أميز حمحمتها رغم قيامى فى البعد ، لا أعرف

حروفها، بل لا أدرى إذا كانت تنادى صاحبتها، أى أننى أستعيد قديمها، أو أنها تخصنى بنطق أسمى عبر الغوامض التى لا قبل لى باستيعابها، فى نقاط متباعدة من العمر بعد انقطاعى وتنقلى فى الأمكنة والأزمنة، واختفاء كافة ما عرفته من مصادر أبقت على وشيجة. بدأ ذلك برحيل أمى وانقطاع شقيقتى عن زيارة جاراتنا اللواتى حفظت ودهن حتى إدراك الوهن للصلات القديمة، لكم تطلعت إلى أمى مبتسما. تدرك المعنى الكامن. اعتدت مواجهتها بها عند شروعى فى التورية، لم يخف اهتمامى القديم عنها.

«ما أخبار سعاد؟».

أخر ما أطلعتنى عليه يتعلق بمدينة المنصورة، غاب عنى الآن الأمر، هل زواجها وانتقالها للإقامة هناك أم التحاقها بهيئة تدريس الجامعة.

لا أدرى..

المهم أن ثمة صلة بين هذا المكان وبينها. من يسعون عبره أصغوا إلى صوتها. هل أدركوا ما عرفته؟

لو أبديت الهمة لتوصلت بقبس من أخبارها. لكننى رحت أستعيدها بينى وبينى فصارت عندى أكثر ثراء مما هى عليه فى الواقع المحسوس، أيضا. خشيتى سماع ما يكربنى حال بينى وبينى، غير أن ما لم أتخل عنه توقعى رؤيتها مصادفة، وهذا ما لم يحدث قط حتى وقت تدوينى هذا. كأنى اكتفيت بالتمعن فى أصدائها. تلخص حضورها فى المويجات غير المرئية، بل إنها بداية إدراكى مباهج

الأصوات، بعض ما سمعته منها أجهجني وبعث دفئي، جلبت بتأثيره ما بين صلبي وترائبي.

لا تصهل فرس إلا ويباغتني وقوفها، رفعها الرأس عاليا، نداؤها، أضناني على البعد، والبعيد دائما مدبر، ماض إلى موضع ما، تتداخل ملامحها، خطوها، بمشية الفرس المتأهبة، والحصان الواثب الوثاب، ما بقى عندى أصعب ما يمكن استعادته، صوتها.

تلك الشرخة النعومية، لكم اجتهدت لتوصيفها، لكن ما من ألفاظ تساعد، أبث ما أقدر عليه من جهد، صعب احتواء أى صوت بالوصف الدقيق، رغم أن الألفاظ ليست إلا أصواتا، لكن ليس كل ما تدركه الحواس يمكن التعبير عنه، يشق علىّ التأشير والتعيين، تلك الحمحمة، الإنشطار المفاجئ المزجج، إنه بداية اهتمامى وإدراكى رفعة الصوت، أنه ليس مويجات ونغمات، إنما تصوير وتلخيص، تصوير للدخائل والرقائق. إذ أصغى عبر الهواتف، أو من وراء حجاب مكانى أو زمانى أنفذ إلى أحوال المناطق، أدرك إذا كان مرحبا، أو متبرما. إذا أدركه ضجر أضع يدى عليه، إذا حاول إخفاء أمر يظهر عندى. مثل إعياء عابر، أو وهن مدسوس، أفهم الآن السبب الكامن وراء ذلك الطلب الغريب الذى يبديه الأطباء عند الفحص.

«قل آه».

آآآه..

عبر الآه الممدودة يبدو مكمن الداء . كلما جاء الصوت عن بعد ازداد كشفا لأحوال مصدره . كلما نأى زمنها عندى أعمقُ كشفا وفهما ، كلما أمعنت فى أدبارها ، العجيب أننى لا أذكر أستنفارا حسيا جرى عند سماعى نداءاتها ، أو حوارها مع صاحبتها فى الصباح الباكر ، أو أويقات العصارى ، إنما جرى لى ذلك عند استعادته ، فكأننى جبلت على مضاجعة العدم ، والاتحاد بما لا يوجد ، غير القائم فى السنن .

إنها الحمراء ، واقفة فوق السطح المغطى بجريد النخيل وأقراص الجلة تطل على فناء البيت قبل تخطيها الحاجز مبتعدة ، متنقلة عبر أسطح البيوت ، لحظة أدبارها يرتفع صوتها ، أدرك أصل البحة ومصدر الشرخة التى علقت بى فلاقيت منها تعبا . وهن أدركنى فلا أدرى الآن أيهما أسعى إليه أو يسعى إلىّ ، من على وجه اليقين والتمام؟ الآتية أم المدبرة؟

رشحة الرانية

إلى وقت قريب ظننت أنها المرجع، أنها المصدر والأصل لكافة من ملت إليهن وسعيت تلمسا لود أو بدء صلة، لسنوات طوال بعد اكتمالها وفراغي منها استقر يقيني هذا قبل أن أبدأ تفحصي لما كان، ورؤيتي بعد انقضاء الأوقات ما لم أطلع عليه وألم به في حين اكتمالها وتحققها.

لما جرى ذلك فهمت أنها فرع ينتهي إلى الحمراء، أن كل ما أسرني إليها مجرد ترديد. أنها ليست مصدرا بذاته، لكن شق عليّ تعيين عنصر معين مثل سابقاتها يمكنني القطع أنه يمت إلى من لا أدري أين مستقرها ومأواها الآن.

ربما لأنها علامة فارقة، فكل من نزعت إليهن قبلها لم يبلغهن أمري مثل نادية وسعاد وما بينهما عبور سريع لبنية فارهة سمراء كانت تزور أمها وزوجها المقيمة في مواجهة شقتنا بالدرب الأصفر لها ذكر في دفتر خصصته للنوافذ، لحظة ظهورها في الشرفة تكتمل مشروعاتي، أتطلع لكنني لم أعلق ولم أكابر، ما عرفته من ترصدي نادية، وطول انتظاري صوت سعاد، أما مجيدة فصا فحتها وأصغت إلى نطقي كما أينعت ألفاظها عندي، في ليلة لقائي الأول بها، كنت

خفيا، منطلقا بكامل حمولي، تواقا. الزمن كله قادم، وعندما يبدو هكذا لا يطيل المرء التأمل، ولا يدقق فيما يكون بالفعل. مع اكتمال المراحل، ودنو الأسفار من غاياتها، يمعن المرء النظر فيما قطعه وأتمه. عندئذ يرى في المنقضي ما لم يطلع عليه وما لم يلم به وقت مثوله، هل ما يقف عليه متعلق فعلا بما كان، أم له صلة بمفهوم ورؤى تقوم الآن؟ فكأن الأمر تفسير لمتن انقضى أمره، طويت صفحاته، وبهتت سطوره، ولم يتبق إلا وريقات معدودات؟ أم إنه الوعي بذلك يأبى المحو فيتعلق بما تجسد وسعى يوما، وهكذا لا يكون ذلك إلا رفضًا للعدم ورغبة مستحيلة في الإثبات. هنا يصبح تقليب الذاكرة وفحص مكنونها اعتصاما بالوجود وتعلقا به.

يمكنني تحديد وقت انبلاجها، إشراقها في أفق وعيي، أما المكان فناصع لا ريب فيه، بالضبط أمام مدخل المسرح القومي. المطل على ميدان العتبة، القائم عند الطرف الأقصى لما تبقى من حديقة الأزبكية.
في ذلك الوقت كان السور مكتملا قبل نقل الباعة وتشريدهم. وكان مبنى الأوبرا مركزا للمنطقة بوقاره ورقته وزخارفه وما يصدر عنه من مويجات غير محسوسة قبل أن يلتهمه الحريق في عام واحد وسبعين وتسعمائة وألف. وكانت مقهى متاتيا عامرة، كذلك البناء العتيق الذي يعلوها، قبل أكتمال هدمه مع مطلع القرن الجديد، ولسنوات كنت أتابع إزالته البطيئة بسبب تضارب القرارات وليس عن قلة إمكانيات، بدءوا بخلع الأبواب والنوافذ المستطيلة، وهنا انكشف لي عرض الجدران المبنية من الحجارة الصقيلة، إنه نفس طراز مبنى البريد، ومبنى المطافئ، وفندق البرلمان، ومقر صندوق الدين، وُضع

التخطيط كله ليكتمل مع الأوبرا، ويبدو أن الأوبرا كانت بمثابة المتن، وتلك البنايات هوامش، أو ترديدات.

عندما اقتربت من بوابة المسرح القومي قاصدا مشاهدة مسرحية لا أذكر اسمها الآن وبالتالي مؤلفها. كان الوقت ليلا. وبرد القاهرة ماثل. إذن.. ربما كان ذلك فبراير أو آخر يناير من عام تسعة وستين. الملابس وانتظام الطقس عبر الشهور أدلتي وبرهاني. كانت ترتدي السترة الجلدية الشمواه، وتنورة تتبادل مربعاتها الألوان، ولتلك السترة شأن وترجيح دونته في القسم الذي خصصته لما ارتبطت به من أشيائهن. وما بقي عندي من آثارهن، بعضه ماثل، أحتفظ به والبعض عالق عندي، لم يمحه التوالي والمرور من أيام إلى أخرى.

إذن الفصل شتوي، الوقت ليلي، تلك الساعة الواصلة ما بين الثامنة والنصف والتاسعة والنصف موعد رفع الستار حيث لا يمكن دخول قاعة العرض. كانت التعليمات صارمة والنظام ما زال والجرح الذي بدأ في يونيو لم يزل طريا ينزف، لا بد أنني دخلت محيطها ولا بد أنها ظهرت في مجالي عبر ذلك التوقيت. غير أنني لا أقدر على تعيين اليوم، سبت أم أحد، اثنين أو أربعاء؟ لا أدري، لم أنتبه قط عند مروري بالملحيظات المؤدية، السارية إلى تثبيت اسم اليوم والتوقيت، إنما جل اعتمادي كان على الذاكرة، بل إنني لم أنتبه إلى القدرة على الاستعادة فكل ما تعلقت به وأثر فيَّ كان قريبا ولم يبتعد بعد. لم تفصلني عنه المسافات، لم أتوقف كحالي الآن لأتفحص ما اندثر، ولأبذل الجهد كي أفهم ما كان عليه بالفعل وكيفية مثولي

له، أو رؤيتي له الآن، وما أنا إلا محصلة تلك الأويقات المندثرة، والثواني المنشطرة، المنقضية، والرؤى المبهمة، وقد كانت يوما جلية. ناصعة، غير أنني مررت بها مرور الغوافل، السادرين في غيهم، غير المتبهين إلى مآلهم وما سيصيرون إليه، لم أنتبه إلى أنني سأبلغ يوما أعتصر فيه مكنوني لأتذكر عبارة أو كلمة ممن تعلقت بهن. يتسلل كل منا إلى حنايا الآخر، كل شيء كان راسخا، واضحا كأن التفاصيل لن تبيد أبدا. الآن.. أرى الأمور في جملتها، في عمومها. ربما تفلت بعض الشظايا، لكنها تبدو منبتة، لا صلة تربطها بما كان قبلها أو بعدها، كما أنني غير مدرك، غير ملم بقوانين خفية تعمل عملها بمعزل عنا، فتواري تلك اللحظة وتبقي على تلك. تجعل هذه العبارة حية ماثلة، وتفني مناقشات شتى، بعضها كان ممكنا أن نقضي خلاله لشدة أنفعالنا وتصديق أمرنا.

تلك الليلة لم أدون التوقيت وأثبت الحالة، ربما لإستغراقي وجذبي إليها. بعد طول معاينة وتكرار أحوال أقول إن النظرة الأولى تحدد المسار، بها يتم الأمر كله. وما يتبع ذلك تفصيل. تماما مثل الانفجار العظيم الذي جرى ثم تلاه تمدد الكون وتكون الأجرام من مسجرات وكواكب وشهب وغبار كوني منه جئنا وإليه نعود. تماما مثل الولادة، يعلن المولود عن مجيئه باكيا، صارخا، مغمض العينين، ثم يسري، حتى يستوي فيرتد منكسًا كما جاء أول مرة، كل الحيوات تكتمل لحظات بزوغها، تتحدد مساراتها. إلا تفاصيل، تفاصيل تجيء، أخرى تروح، حتى تحين لحظة الاكتمال فتنهض الراحلة. هذا جُل شأني مع اللواتي عرفتهن وهفا نسيمي إليهن، ذلك معظم حالي،

باستثناء نادر يسير . مرة واحدة ، عندما جمعتني ظروف العمل بشابة سمراء ، سرحة القوام ، قديمة الطلة ، كأنها تجسدت خارجة من جدارية في سقارة أو طيبة ، أو مقبرة مجهولة في صحراء لم يبلغها إنسان بعد ، لم يهتك سرها . كنت أتعامل معها يوميا . أصافحها . أتبادل معها الأوراق ، أتحدث إليها خطفا . كلمات متبادلة ، أعتدت طوال عمري ألا أتطلع إلى إحداهن في مقار عملي ، منتسبًا إلى صاحب قول متداول . «الفران الشاطر لا يأكل من خبز أعده ودفع به إلى النار» .

غير أنني انتبهت إلى بصتها يوما ، وليس مثل نظرة الأنثى كاشف لها ودليل ، تلك الطلة الريانة المؤطرة بالكحل والإغواء الصامت والفورة المقموعة والنداء الصريح ، غير المنطوق ، استمر تطلعها إلىّ مقدار ثانية لكنها كافية كي أدرك أن كنزا مغموراً في متناولي ، أمر به يوميًا ولم أنتبه إليه . خبيئة كان ممكنا أن أفضها منذ سنوات ، ولكن غشي على بصري وطمر حسي ، وهذا حال فريد لم أعرف مثيلا له من قبل ، ربما أفصله في موضع آخر ، لكن الغالب على حالي ما يمكن أن أسميه الاندلاعة ، هذا ما جرى تلك الليلة أمام المسرح القومي .

غير أنها لم تكن بمفردها ، إنما بصحبة أحد معارفي ، مصمم سجاد شهير بين أهل الصنعة ، تخصص في طراز بخاري بأنواعه ، لديه مصنع صغير يضم ثلاثة أنوال يدوية ، يقوم بصناعة هذا الطراز الجميل ذي النقوش الهندسية المتماثلة ، بدءا من صباغته خيوط الصوف البيضاء بالألوان الحمراء الياقوتية بدرجاتها الغامقة والفاتحة . توسع

فيما بعد وصار شهيراً بين رجال الأعمال، لكننى لم أنس قط أنه كان وسيلتى إليها. مبررى لمصافحتها، عندما قدمنى إليها قائلا . .

«مجد غورس . . ».

ثم أشار إلىّ ناطقا اسمى باعتزاز شأن من تزداد مكانته بصحبه المبرزين أضاف.

«صدر له كتابه الأول . . لا يمر يوم إلا ونقرأ عنه . . ».

مجملها أخذنى عنى، غير أننى تمترست فى موقع المتطلع إليها، العالق بصره بها. من عقد العزم على ألا يكون اللقاء عابرا، ألا تنقطع الصلة بمجرد انتهاء اللقاء، تلك جاءت إلى هذه اللحظة لتبقى معى، لا يعنينى كيف، ولكن يجب ألا يقع انفصال تام، لم أفكر فى كنه العلاقة أو مداها، لكن وجودها حرضنى، وسعيها فى الحياة الدنيا استنفرنى، فإن لم أستطع إلا النظر فهذا حسبى.

حدث بعد عقود متوالية أن التقيت بنية رقراقة. فى مدينة صغيرة بجنوب فرنسا، ثم جاءت إلى موطنى لدراسة لغتنا وآدابنا، واتصلت بى عندما اجتازت باب مكتبى قصدت قلبى مباشرة فخيل إلىّ أننى أسترجع صبوات الزمن القديم، حدثتنى عن لقائنا فى مدينتها الذى لم أذكره على الإطلاق، لم تلفت نظرى ولم تثر انتباهى أول مرة، ربما لأننى كنت فى جمع وضجة وربما لنزول غشاوة على بصرى، أو انشغالى عنها بشىء ما، حدقت إليها متفرسا مقتحما. فى السنوات التى تمر الآن لا أرجئ ولا أخفى. ربما بتأثير إدراكى قلة الوقت وقرب

المصير، هذا حال غالب عليّ عموما، في لقائنا الثاني قلت لها إنني قريب، قريب، وأنها لمست مني وترا. قالت كريستين دهشة.

«لكنك لا تعرفني..».

قلت مبتسما وداخلي ينتحب على فقدان الأوقات ونفاذ معظم الرصيد.

«لكنني رأيتك.. أبصرت».

كانت تعني ما تقول، وكنت في عين التحقق بما لفظته، كل ما يمكنني الإحاطة به. ألم به في البصة الأولى، فإما نزعت. وإما مررت بمن رأيت مرور الكرام. ولأمرها تفصيل فيما بعد، ذلك أن لها من الحمراء دقة قوامها وهشاشة حضورها.

أما مجد غورس فلم تكن إلا المستحيل الذي أبحث عنه وأحاول، لا ريب في جمالها الذي يلبي احتياجات شتى عندي ويتطابق، قوامها، حضورها، طريقة إصغائها، ثمة أمر في نبرها، حودة، انعطافة مفاجئة مبللة بماء الورد والرضا في صوتها، خاصة عندما تجيب، بالتحديد عبر الهاتف.

في ذلك الوقت المبكر كنت أول الجاهلين بي. أحيانا تكتمل معرفة المرء بنفسه من خلال الآخرين، فهم كالمرآة، يرونه من حيث لا يقدر ويبصرون فيه مالا يمكنه أن يرقبه في نفسه، ألم يتمنى كل إنسان أن يستمع إلى صوته. حتى إذا أصغى إليه عبر تسجيل ما، وأعاده. ألا يداخله العجب إلى الدرجة التي تجعله يتساءل دهشًا: أهذا يصدر عني؟

أو ربما يقول .

ما ظننت أن صوتى هكذا . .

لا يتعلق الأمر بالصوت فقط ، إنما بسائر الدخائل ، أعرف أن إلمام المرء بسائر ما ينطوى عليه مستحيل ، فكم من أمور تتداخل معنا ، وتسرى فينا ، ولن نلم بها أبدا ، إلا إذا بلغنا درجة يمكننا عندها فهم جزء من كل ، أو التقينا بمن يتفهم ما نحن عليه ، لكن . . هل من الأفضل أن يمضى الإنسان جاهلا بما يكون عليه ، أم الأفضل بلوغ الاكتمال بدون الوعى بسائر المكونات والدقائق؟

لا يمكننى القطع ، لكننى عندما سمعت صاحبة قديمة لى . تقول يائسة بعد لقائنا مرة أخرى ، ومحاولتها بعث ما كان .

«لم أنتبه إلى أنك تحب البعيد إلا الآن . . »

ثم أتبعت قولها هذا بندم فرانى فريًا .

«ليتنى لم أعرفك . . » .

تلك «لور» التى سردت أمرها فى كتاب التجليات فليطالعه من يرغب ، فقد ذكرت فيه دقائق ورقائق يصعب إيرادها مرة ثانية . ولى عودة إلى ما لم أبح به ولم أشر إليه من قبل . ليتنى أقدر على تفسير هديل الحمام ساعة الظهيرة ، وترجمة حفيف الشجر إذ تتخللها نسيمات غير منظورة ، وشرح القوة الدافعة لأمواج البحر ، والحقائق الكامنة وراء تدرج ألوان الشفق واختلافه عن حمرة الانبلاج ومطالع الشروق . أحيانا أمعن النظر داخلى لأفهم خارجى ، وكثيراً ما يأخذ

خارجى بيدى ليسبر بعضًا من أغوارى ودفائنى. ولعلى بتدوينى هذا أبلغ ما لم أصل إليه قبل أربعين عامًا أو أكثر، لعلى أجلو الأسباب، هكذا تحدد الأمد عند نظرى إلى مجد ومصافحتى لها، ثمة ما يجمع النساء بالمدن، عندما أقترب برًا أو بحرًا أو أحلق جوًا متجهًا إلى الهبوط، من النظرة الأولى ألم بالمدينة فى عمومها، وعندما أجتاز البوابات الحديثة من مطارات، أو محطات قطار أو موانئ، أنظر وأتعرف عن قرب إلى الطرقات والشوارع والنواصى، والمتاجر، وكيفية تقديم المطاعم مضمونها إلى زبائنها، تعنينى المداخل المؤدية إلى البنايات كافة، ومنها أقرأ غير المرئى. الحذر أو الاطمئنان. الصد أو دعوة الداعى.

كما ذكرت، فإننى مقتنع، مقر أن الأمر كله يتحدد فى اللحظة الأولى وكافة ما يلى ذلك تفصيل، هذا ما تحدد فى مجد غورس، الاستحالة عينها هى، كانت حفيدة باشا قبطى، صعيدى، من أسرة عريقة محافظة، رغم وعيى الأتم بهذا لم أخف، ذلك أننى إذا توقفت لن تتحقق الاستحالة التى أسعى إليها وأرغب، لن تكتمل إلا بإخفاقى، أعرف أن هذا غريب. لكننى ربما أوضحت فى المسار، فلأفصل إذن قدر الإمكان بين ما كان عليه الأمر زمن تحققه، وما أراه عليه الآن عند استعادته.

لم يستغرق لقائى الأول بها إلا دقائق معدودات، ربما لم تتجاوز الخمس، بعدها اتجهنا إلى صالة المسرح القومى ذى الستارة الياقوتية الوثيرة، بدأ فضولى يتأجج. ما طبيعة الصلة بينها وبين صاحبى فنان السجاد المعروف؟ منذ شهور علمت أنه تقدم إلى خطبة زميلة لنا فى

كلية الفنون التطبيقية، التى لم أتم دراستى بها . اسمها ثريا، جمالها خبر، وكانت هدفا لكثيرين، منهم زميل لنا ابن وكيل وزارة، أذكره كأنى أراه الآن بوسامته ورقته وتدخين السيجار ذى الرائحة النفاذة والذى لم يكن ذائعا فى ذلك الوقت. ما تبقى منه عندى مشيته ولطفه واقترابه الهادئ. إلى أين؟ ما الذى انتهى إليه؟ أين يسعى الآن فى الحياة الدنيا؟

لا أعرف، ولم ألتق به قط حتى عن طريق الصدفة، وإذا استدعته ذاكرتى فيرتبط دائما بثريا هذه بديعة التكوين التى لا بد أنها كانت بعيدة النظر، إذ أصبح زوجها منذ آخر السبعينيات من كبار رجال الأعمال والسياسة أيضا، وكثيرا ما كنت أسأل نفسى: هل جمع هذه الثروة من السجاد البخارى؟ من الأنوال الثلاثة؟

لا أدرى. طوال العرض المسرحى تلك الليلة لم أكف عن اختلاس النظر إلى الجهة التى جلسا فيها، محاولا التوصل إلى ما يربطهما من خلال نظرات كل منهما إلى الآخر والعبارات المتبادلة وخاصة إيقاعاتها، لكننى لم أقطع بشىء، ازدادت حيرتى عندما قابلته فى الاستراحة بمفرده، سألته عن كل شىء، إلا عنها فكأنى لم أرها بصحبته ولم تبد اهتماما بكتابى ولم أقدم إليها عنوان مكتبى فى ربع السلحدار بخان الخليلى لتتفضل إذا وجدت من وقتها متسعا. ستجد نسخة موقعة فى انتظارها. كنت على وشك أن أطلب تحديد موعداً لكننى آثرت الكف، ذكرت فقط مواقيت تواجدى بالعمل، من التاسعة إلى الثانية، ومن الخامسة إلى التاسعة.

أحببت فترتي المسائية، تماما كما ظللت أشعر بالإمتنان لصاحبي ولسجاد بخاري ولمهارته التي دفعت والدتها إلى طلب ثلاثة أبسطة تمامًا مثل المنسوجة في بخاري العتيقة التي بلغتها في عام سبعة وثمانين، وجرى لي فيها ما دونته في رسالتي عن الصبابة والوجد، أحببت ناصية المسرح القومي، وأضواء مصابيح الشارع والميدان وظل إنسان عابر لحظة رؤيتي لها، أما سترتها الجلدية بنية اللون فأمري معها يطول كما طال مع مشبكها الخشبي المطعم.

جاءت إليّ مساء، في السادسة. فوجئت بعم إسماعيل الساعي يقف في فراغ المدخل. يقول إن شابة مثل الأجانب تسأل عني.

هي.. هي وليس أي إنسانة أخرى، أيقنت منها رغم أنني لم أرها ولم أتحرك من مكتبي لأرصد وأستمتع بلحظة دخولها، لم أعرف نساء يشبهن الأجانب إلا هي كما رآها عم إسماعيل. لماذا لم أتوقع تانيا البلغارية التي تتقن العربية؟ زوجة الدبلوماسي الأول بعد السفير، كانت سيدة شابة. تكبرني بأعوام ثلاثة، ذكرت لي أنها ولدت قبل نهاية الحرب بثلاث سنوات، أما أنا فولدت يوم انتهاء الحرب. بالضبط في التاسع من مايو عام خمسة وأربعين، خمسة وأربعين إنه نفس العام الذي ولدت فيه مجد، كان ذلك أول عامل قرب مشترك تلمسته، كانت تانيا ودودة، هادئة القرب رغبت في زيارة أمي، وجاءت إلي بيتنا الضيق في درب الطبلاوي ودعتني إلى حفلة عيد ميلادها، وعندما مدت يدها تطلبني للرقص دهمني خجل

فلم يسبق لى معرفة الرقص قبل ذلك إلا فى السينما، وكان الاقتراب إلى هذا الحد مثيرا للحس بالنسبة لى. لم أكن أعرف بعد حرمة الرقص، وأنه فعل جميل. فيه الترميز أكثر من التصريح. لم أكن قادرا أيضا على التفكير فى تانيا كأنثى، ألم أتعرف إلى زوجها؟ هى التى قدمتنى إليه، كيف يمكننى إذن؟ لا أشعر بنظراتى تطول وتنغمس إلا وأحيد على الفور، عندما أصرت قمت واقفا. مبتسما، مداريا جهلى وخجلى، أمسكت يدى، لامست خصرها فوقفت على نعومتها وبسبسة قوامها، بعد لحظات داعبتنى قبل أن تكف «سألقنك دروسا فى الرقص» ولهذه العبارة تفصيل فى موضع آخر.

لم أتوقع تانيا لأنها اعتادت أن تهاتفنى قبل مجيئها، ولم يكن انتظارى مستنفرا إلا باتجاه أنثى مفردة. لم أتيقن من حضورها وإن تمنيته ورغبته، جاءت بعد ثمانية وأربعين ساعة تقريبا من لقائنا.

ستظل تلك الدهشة الأولى فى عينيها من معالمها التى لن تهن ولن تتغير كذلك قدرتها على إبداء التعجب، وملاحظاتها الخاصة بى، حتى ذلك الحين، وقت مرورى بعامى الرابع والعشرين لم أعتد ملاحظات خاصة تبديها إحداهن حول أمر يصدر عنى أو يخصنى. أثناء حديثى عن ربع السلحدار ومضمونه وعمقه فى المكان. رفعت أصبعها ضاحكة مقلدة إشاراتى، توقفت، هل ارتكبت خطأ؟ حتى ذلك الحين لم أعرف دقائق العلاقة بين رجل وامرأة، كيف يجب أن أتصرف عند اللقاء؟ اعتدت المشى أمامهن ولكننى أدركت أن التصرف اللائق يقتضى بالتأخر عنهن وإفساح المجال لهن. فوجئت

بها تقول إن أشارة أصبعي غريبة ، وأن يدى تعبر عما أقول ، ثم قالت . .

«إنها مليئة بالحيوية . . » .

لم أعرف كيف ينبغي أن يكون الرد ، غير أنني انتبهت لما يصدر عني ، وعندما أتطلع إلى يدى أشعر أنها ترقبني مبتسمة من مكان ما ، الحق أنها تراني خفية منذ لقائنا أمام المسرح القومي ، هكذا أصبح لكافة تصرفاتي إيقاع ، وإطار ، هي بذاتها ، بوجودها ، سواء كانت قريبة أو بعيدة ، حتى عند سفرها بمفردها إلى مرسى مطروح ، ذلك السفر الذى أدهشني في البداية ، إذ كيف تسافر بصحبة أصدقائها وصديقاتها ، مفردة هكذا؟ حتى في ابتعادها كنت أوقن برؤيتها لي ، أنها تطل عليّ من مكان ما ، لذلك اعتدت التوفيق في كافة ما يصدر عني ، بدءا من مشيي في الطريق إلى تأملي عناوين الكتب المصفوفة في مكتبات سور الأزبكية . إلى درجة صوتي عند النطق .

حدثتني عن حيرتها في الوصول إلى مقر الجمعية التي أعمل بها ، إنها تتردد على خان الخليلي وتعرف بعض العاملين في المعارض ، لكنها لم تتصور وجود هذا العالم الخفي في الطوابق الثانية من مباني الخان العتيقة . حدثتها عن الحرفيين المهرة في نقش النحاس وتطعيم الصدف وصباغة الجلود ورفي السجاد ، وتحويل النحاس إلى مشغولات شتى بدءا من المقابض إلى الفوانيس والأطباق ، دعوتها للتعرف على حضارة بأكملها تهددت بالاندثار بعد هزيمة يونيو وغلق قناة السويس وتوقف حركة السفن وقلة السائحين ، الحقيقة أنني كنت

أهدف إلى مد الصلة، إلى تكرار ظهورها فى المجال، إلى الاقتراب منها لعل وعسى!

من الصعب استعادة كافة التفاصيل رغم أهميتها. لكننى أنظر إلى مرات إصغائها لى وتدرج النظرات وتنوعها، من ملامح لا يمكن استنتاج أمر محدد منها إلى لواح الود وعلامات الراحة إلى القربى، حتى تطلعها الهادئ ثم توليتها البصر أرضا وتصريحها.

«أنت عزيز قوى علىّ..».

هذه الكلمات الأربع شغلتنى وقتا ليس بالهين، لم أفصل بينها وبين الوضع الذى اتخذته، ميلها قليلا إلى الأمام. وابتسامتها الهادئة المصاحبة، أما لهجة الصوت ودرجته فتنبئ بنطقها المفاجئ أثر تفكير مع أن أهم ما لفت نظرى عندها بساطتها واتجاهها مباشرة إلى القصد وخلو معانيها من الظلال، لماذا ترددت قليلا قبل أن تفصح، وماذا تعنيه بلفظ «عزيز»، عندما تنطق إحدى جاراتنا كلمة عزيز فى حارة درب الطبلاوى، فذلك يعنى الميل والهوى، يندر استخدامهن لكلمة حب. يقلن على سبيل المثال «دا غالى علىّ قوى»، «دا الوفق اللى بينى وبينه مايتوصفش». كلمات دالة على المحبة والأخوة والقرب، فى حارتنا المرأة تنادى زوجها «يا أخويا»، هل يتضمن ذلك ميراثا قديما منحدر من العصور الأولى؟ ربما.. لكن بالتأكيد تتسع دلالة الأخوة هنا إلى ما يتجاوز معنى الأشقاء. تصبح تعبيراً عن الرفقة والصحبة والألفة والآلاف.

ماذا تعنى خريجة الميردى ديبه، التى تتحدث مع والدتها

بالفرنسية، وإلى صديقاتها وأصدقائها الذين أتيح لى أن أتعرف على بعضهم؟ ماذا تقصد عندما تقول كلمة «عزيز»؟

كل حرف يصدر عنها أخضعه للتأويل والتفسير، حذرى وخجلى وحرصى، ألا أتجاوز حال بيني وبين البساطة التى كانت تتصرف من خلالها. كنت فى مواجهتها أرتدى أقنعة شتى، أسألها عن صديقاتها وقصدى الحقيقى الوصول إلى الاستفسار عن أصحابها من الذكور، حتى إذا بدأت الحديث عنهم لا أسمع فقط، إنما أشهر حواسى كافة لأرصد علامات الخصوصية المتعلقة باسم معين، كان يمكن أن أتجه إلى هدفي مباشرة، لكن لم يكن لدى علم بتلك الطرق، كما أن خجلى الذى جبلت عليه يحول بيني وبين ذلك. إضافة إلى خشيتى فقدها، أن تغضب، أن ترى فيما أقوله أو أستفسر عنه فجاجة، كنت دائم الخوف من خطأ ما، خطأ لم أقصده، لم أعمد إليه، لذلك لزمت الحذر الشديد. وأتبعت التقية، أن أبدو مغايرا لما أنا عليه بالفعل. لم أكن فى مواجهتها أنا، بينما كانت هى صريحة، واضحة كالصيف فى سماء جنوبنا، وربما ازداد غموضى فى مواطن بعينها. عندئذ تتطلع إلىّ حائرة وتسألنى عما أقصده فأفسر ما قلته بما لم أقل وهكذا يشق علىّ الأمر.

كنت نزّاعًا إليها ولا أنتظر منها شيئا محددًا، أرغب فى حلول مواعيدها، وأتأهب للقياها، وأتفنن فى اقتراحاتى لدعوتها إلى أماكن أعرفها ولا تلم بها. أو كتب أحببتها ولم تطالعها. إلى أن بدأنا فى جلساتنا الشعرية، جاء الاقتراح منى. أن أقرأ عليها ما توقفت عنده

من أشعار قديمة. مما اعتدت عليه أن أبدأ يومي بالشعر، أصحب شاعرا واحدا المدى، حتى أستوعبه وأنفذ إلى خباياه وأقف على دقائقه، إذا أعجبني شيء أقدم على نسخه، أتأنق في رسمه موهما نفسي أنني أبدعه أثناء كتابته، وأحيانا يبدو لي خلال النقل ما لم أصل إليه بالقراءة.

أعددت ما تجمع لي عبر سنوات، رحت أتلو بصوت عال ما ستسمعه مني، مختلف تماما قراءة ما أعجبني لمن أعشق، بعض المعاني، سيشي صوتي بقصدي، إياها أعني.

تحمست واقترحت مكانا هادئا، قالت إنها تتردد عليه أحيانا خاصة في الأيام الصيفية إذ يبلغ الحد ذروته وتضطر إلى البقاء وسط البلد لارتباطها بموعد أو لترتيب مسبق.

سيصبح هذا الفندق دالا على حقبة ومرتبطا بها، الحق أنني لم أقصده بعد سفرها الطويل إلا مرة لكنني لم أجده. تبدل تماما وندمت لأنني طرقته مرة أخرى. كان ممكنا أن يحفظ أوقاتنا لو أنني لم أعد إليه. لكنني لا أستعيده الآن من خلالها إلا وتتداخل تلك المرة الوحيدة مع أوقاتي فتفسد وتخلخل.

يبدو من الخارج كأنه إحدى بنايات لندن التقليدية. طوب أحمر قاتم، نوافذ من خشب سميك، مدخل مفروش بالسجاد يؤدي إلى الطابق الأول حيث الصالون الوثير، مقاعد الجلد المريحة، لون الجدران. سبق أن وصفته وصفا دقيقا في أقصوصة سطرتها بدافع الحنين معنونة بالبهو فليطلع عليها من يرغب.

صار مكان لقائنا بمفردنا، لم يأت بصحبتها أحد، ولم أخبر أصدقائى به. كانوا كثيرين فى تلك الفترة. فى تلك السنوات كنت أفيض بالنشوة، لا أدخر الطاقة، أشهر ما عندى على من أصاحب. هكذا قدمتها إلى سائر معارفى، ارتبطت بصلات جميلة سبب لى بعضها شكا وحيرة وبلبلة خاصة فى مرحلة تلمسى عالمها ومحاولتى الوقوف على خصائصها. لكنها والحق أقول حرصت دائما على تأكيد خصوصية ما يصل بيننا. فى نهاية أى سهرة توجه الكلم الطيب المصحوب بالنظر إلىّ، تسألنى عما إذا كنت سأبقى أو أرحل. وبالطبع أتأثر لأنها تتجه إلىّ، لم يحدث قط أن خصت غيرى بمثل ذلك، بالطبع أنصرف معها إلا إذا كانت بصحبة صديقة أو صاحب من جماعتها، أما لو كنا فى مقهى الفيشاوى القديم، فإننى أمشى إلى جوارها حتى سيارتها الرمادية من طراز بيجو العتيق، المنتج فى نهاية الخمسينيات، كانت كبيرة الحجم، متناقضة مع حجمها النمنوم، تبدو خلف المقود كأنها طفلة تقود قاطرة، غير أنها كانت ماهرة، ما زلت أحفظ أرقامها الخمس، ولون مقاعدها، فى هذه العربة اتجهنا بمفردنا إلى مطعم السمك اليونانى القريب من الأهرام. وإلى مطعم ريفى على طريق سقارة أصبح بأطباقه وحديقته الريفية وبنائه القديم معلمة من المعالم المتسبة إليها والتى لا أذكرها إلا وتبرز من أفق الذاكرة بحضورها الوسيم، أو يلوح أحد تلك الأمكنة من خلالها، أشير هنا إلى المكتبة الفرنسية بوسط المدينة.

كانت محلا للقاءاتها بأصحابها. وكانت تقف كبائعة أحيانا عند غياب المديرة التى لم تكن إلا محوراً للصحبة، فى هذه المكتبة رأيت

فوزى لأول مرة، قامته الطويلة، وابتسامته الساخرة ولا مبالاته المقصودة. ثمة مكان تناولنا فيه العشاء مرة واحدة لكنه بقى معى حتى الآن رغم اختفائه منذ سنوات طويلة، مطعم صغير فى ممر مؤدى إلى مسرح إسماعيل يس المطل على شارع سليمان باشا والذى أصبح اسمه طلعت حرب. لكن الناس ما تزال تذكره باسمه القديم حتى الآن. تماما مثل شارع فؤاد. إلى مائدة صغيرة مفروشة بغطاء مربعات أحمر وأبيض وجلسنا، طلبت لسانًا مطهيا فى مرق البروفينسال، أعجبنى الاسم، وأعجبنى أكثر طريقة شرحها لما اختارت، وكان النادل النوبى ودودا، رقيقا حانيا علينا، مرة واحدة فقط. فى تلك الليلة أصرت على دعوتى، المرة الأولى التى تدعونى فيها أنثى، شرحت لها استحالة ذلك بالنسبة لى، كيف تخرج النقود وتدفع، بينما أجلس أمامها صامتًا؟ قالت جادة.

«إذن.. أنت لا تقبل دعوتى..».

خشية الوقوع فى الخطأ، وافقت صامتًا. إلى تلك الأماكن أنتسب وإليها أحن وأهفو، بالتحديد هذا الفندق إنجليزى الطراز، كما يلوح فى ذاكرتى وليس كما رأيته عند عودتى بعد انقطاع.

أويقات لقائنا الثالثة أو الرابعة، كانت دقيقة جدا فى مواعيدها، لا تتأخر ولا تتقدم، ومن ناحيتى كنت حريصا على أن أستقبلها، أن تجيء فتجدنى متطلعا، ترانى منتظرا. لم يحدث قط طوال لقاءاتنا أن وفدت واضطرت إلى البقاء بمفردها، قبل توجهى إليها أتأهب متمهلا. بل إن ذروة راحتى عندما أغمض عينى وأراها آتية من كافة

الجهات، متهللة، مقبلة، أفضل اللحظات عندى دخولها وسعيها تجاهى وابتسامتها العريضة، كذلك إصغائها وإيماءاتها المختصرة السريعة، المصحوبة بآهة اهتمام وإنباء بتركيزها وإدراكها، أيضا عندما تبدو دهشتها ترفع حاجبيها وتزدادة لمعة عينيها، مع نطقها آهة طويلة ممتدة لم أعرف لها مثيلا، وهذا كله منها لم أره متكررا، ولم ألمح منه قبسا فى هذه أو تلك من اللواتى مررت بهن أو مررن بى. ربما لمحت شيئا يذكرنى بأمر منها، لكنه ليس هو بالضبط. لا تتطابق عناصر التشابه إنما توحى كل منها بالأخرى، تماما كما أدركت فيما بعد انتسابها إلى الحمراء، لكننى لم أحدد بالضبط حتى الآن ما يمكننى اعتباره متشابها. لذلك ظننت لسنوات طويلة أنها مرجع مستقل بذاته، منقطع عما قبله، مفرد، وهذا صحيح من ناحية خطأ من جهة أخرى كما سأوضح ذلك فى حينه.

أقول إن جلساتنا تلك من بواعث حنينى. ومراكز استقطابى، خاصة إصغائها إلى ما أقرأه من أشعار، كثير منها يترجم حالى، لذلك يشملنى التهدج عند تلاوتها ويتموج صوتى، وعندما تبدأ قراءة الصحف الفرنسية لى أصغى قامعًا مشاعرى حتى لا تبدو على ملامحى. أتظاهر بإبداء التعليقات على مضمون ما تترجمه مباشرة لى، معظمه حول الموقف من العرب وإسرائيل، والصراع المحتدم وقتئذ عقب هزيمة يونيو المنكرة، وحرب فيتنام، وتداعيات ثورة الطلبة فى فرنسا، وحركات الشباب فى البلدان الأوروبية والولايات المتحدة التى شهدت حركات إحتجاج ضد التورط فى فيتنام. غير أننى كنت أصغى إلى صوتها فى ذاته واهتمامها بترجمة ما تقرأه

مباشرة من أجلى، هذا تخصنى به. لفتت جلستنا وانتظام ترددنا، رجل نوبى متقدم فى العمر يؤدى الخدمة بأصولية رفيعة، حتى طريقة صبه للقهوة فى الفنجان الأبيض الناصع، وأدبه الجم عندما انتبهت يوما إلى وقوفه خلفى عند قراءتى شعراً لأبى نواس.

صلِيتُ مِن حُبّها نارَيْن: واحدةً
بين الضلوع وأخرى بين أحشائى
وقد حَمِيتُ لِسانى أن أبين به
فما يُعبر عنه غيرُ إيمائى
يا وَيحَ أهلىَ أبلى بين أعينُهم
على الفراش وما يدرون ما دائى
لو كان زُهْدُكِ فى الدُنيا كزُهدكِ فى
وَصْلى، مشيتِ بلا شَكّ على الماءِ

«الله.. الله يا أستاذ، أعد من فضلك..».

منذ تلك اللحظة صار جزءا من القعدة حتى وإن لم يلزمنا، يلبى نداء هذا وينجز طلب ذاك ثم يجىء إلينا، يحتفظ بمسافة قصيرة. ما أن أشرع فى القراءة حتى يومىء مغمض العينين، لا يكمل من ذاكرته تأدبا. يحفظ ديوان المتنبى وشروحه. عصر يوم لا أذكر اسمه كنت أنتظر عند المدخل. مجد تتحدث فى الهاتف، اقترب منى الرجل أبوى الملامح، قال بلهجة الناصح الأمين المجرب.

«معك جوهرة وتقدرك . . . حافظ عليها وارعها . . » .

أولاني ظهره، بعد أن صحبتها حتى مدخل المكتبة الفرنسية عدت إلى مقهى الفيشاوى لأدخن النرجيلة فى ركن منزو اعتدت اللواذ به عند رغبتى فى الانفراد وإمعان التدبير لتأمل ما استعصى عليّ فهمه .

استعدت كلمات الرجل بتأن ، ما زلت أحفظها وأعى إيقاعها حتى الآن ونبرات الصوت ، الطريقة التى أنصرف بها كأنه أفضى إليّ بمضمون برقية . وصفها بالجوهرة ، وهذا سداد حكيم ، وإن رأيتها غير ذلك فالجواهر جماد ، لكنها حياة مشعة ورقة هفهافة ، سارية ، لكن ـ لماذا استخدم كلمة «التقدير» ولم ينطق بالحب ، أو ما يعنى الهوى؟

هل قصد بقوله هذا أنها تحترمنى ولا تحبنى؟

لا أدرى .

ثمة طرق شتى للتعبير عن تلك العاطفة وألفاظ يستخدمها القوم ، مثل «الأفق» ، «الميل» وغيرهما ، أما التصريح مباشرة بالحب فمن تأثير السينما ، كثيرا ما أصغيت إلى نجوى ليلية يتبادل فيها زوجان الوداد بعد عناء نهارى ، واطمئنان إلى وفرة الزاد وهدوء الأولاد فى سباتهم .

«أنا بأعزك قوى . . »

الحق أننى لم أعرف كيف أعبر عما عندى ، شرعت فى سلوك سجيتى والتوافق مع ذاتى ، لكن ظروفا عديدة حالت ، منها ما أدركه مثل اعتمال أمور داخلية لم تبد قط ولم تلح لمن أتواصل معهم ، كذا

خشيتي من الخطأ مع الذين أنزلتهم مقاما عليًا، وحذري أن أسبب ضيقًا أو ألمًا لمن أجل وأبجل. أما ما لا يمكنني تعيينه أو حصره فغامض أمره، غير مدرك لي.

يظل لمجد خصوصية عندي. إنها أول أنثى أقاربها وأحاورها وأفضي إليها وأصغي منها مباشرة، كل ما مررت به قبل ذلك عشته بيني وبيني باستثناء الحمراء التي لم أخف نزوعي المبكر وميلي إليها، لم أستوعب بعد ما يجب أن يُقال وما لا يجب. ولم ألزم الفروق بين المذكر والمؤنث، كنت طفلاً أتلقى وأرسل على الفطرة، تطلعي إلى الحمراء ورموقها لي، ابتسامتها، ذلك التناغم في عينيها. والهدوء وتلك الدعابة، أما رائحتها فطال بحثي عنها وتوقي. كان لابد أن يمضي أكثر من نصف قرن لأصل حدًا أستوعب عنده الأمر وينجلي لي. ما سعيي كله ومكابداتي إلا اقتفاء لأثرها، ومحاولة لتنسم عبيرها ولحظات اكتمالها وتمام مثولها، أشير إلى الحمراء التي عرفتها طفلا. أما تلك التي رأيتها وصافحت يدها الخشنة عام خمسة وستين. عند بلوغي العشرين وعبوري ليلة بجهينة مسقط رأسي فلا أتوقف أمامها ولا أستعيد ملامحها إلا إذا قصدت التأسي وإبداء الحسرة. أقول ذلك متعجبا لأنها هي ولكنها ليست هي أيضا، هذا أمر دقيق لعلي أفصله في تدويني هذا عندما يتوافق حالي وأرى ذلك ملائما.

ما يحيرني حتى الآن عسر أمري مع مجد، ويأسي المقدم. منذ البداية لم أطمح إلى أن تبادلني العشق، منذ شروعي اعتبرتها

مستحيلة، كل الظروف تحول دون التلاقى، رغم ذلك بدا منى اندفاعات لم أستطع منعها ورهوجات لم أقدر على كبحها، ونفى وإثبات معا.

أمرها استمر معى ومازال كأنه ندب في روحي قديم، أخضعتني للتمعن والترحال داخلى، لم يكن لى من الأمر شيء فى ذلك الحين، أعنى التجربة، والدربة، ومعرفة إشاراتهن وأحوالهن الدقيقة، يمكن القول إن تعاملى مع صورة مسبقة أكثر مما تعاملت مع واقع ماثل. بل لا أخشى المبالغة إذا قلت أن كل من عرفتهن رَجْعٌ وترديد لمثال تكون عندى في السنين الأول، لكم تحسرت لأن الأسباب حالت دون تمام الوصل، وعندما جرى ذلك فيما بعد كان الوضع قد تبدل. ما يدهشنى أننى لم أشعر بأى رغبة حسية ولم أشرع مرة واحدة فى لمس أطراف أصابعها أو الطواف بمواقعها الأمامية. فى عين الوقت كنت أتردد على بيت فى شارع الشيخ قمر بالعباسية، صاحبته عجوز، بدينة، ملاحتها القديمة مطلة عبر عينيها المكحولتين، لا تفارق مقعدها الوثير، خلفها جدار مغطى بالصور الفوتغرافية لمصريين يرتدون الطرابيش، وأتراك ذوى شوارب وضباط وجنود احتلال بريطانى. لم يخلُ بيتها من أنثى منتظرة. عرفنى عليها صاحب مجرب، جلست إليها، أصغيت إلى استعادتها لحيظات الهناء من عمرها المديد، وما حفل به من أمور غريبة، فريدة. مع رجال راح معظمهم الآن، أغلبهم من ضباط الإنجليز، بعد وقت معلوم تنادى، تجيء من الداخل أنثى منتظرة، تقدمنى إليها، توصيها علىّ وتوصينى بها، تقول إننى عزيز عليها جدا. كلهن عاملات فى

متاجر قريبة أوربات بيوت. الوقت الآمن من العاشرة إلى الثانية ظهرا. لاقيت من بعضهن حنانًا ورغبة لم أعرفها مع من بادلتهن الود، لكنني لا أقدر أن أكف إلا بذكر ما لا أقدر على كتمانه، ذلك أن السيدة ضحكت يوما بخلاعة أولى أججتني وأكدت لي أن أمرها لم يهن، وأن تحت رمادها البادي جمرة تواقة إلى نفخة حيوية، قالت إن أفنديًا محترمًا يماثلني عمرا، يتردد عليها منذ عامين.

«يا سلام يا ما اللي يعيش يشوف..».

بعد تردد منتظم، وحسن معاملة وأدب، فوجئت به أول أمس يقترب منها ويقول لها خجلا إنه يرغبها هي، ولا أحد غيرها. مع أنه كان ينفرد بمطلقة شابة طرية كالخس، صغيرة وحلوة يتمناها أي ذكر، لبى كل ما تحتاج إليه، ضمن لها الحرير والقطن والكستور، كل ما لمحت إليه أو صرحت، بشرط ألا يقربها آخر، بالفعل أوفت، ومن ناحيتها هي خصصت لهما مواعيد لا يأتيها خلالها أي من المترددين عليها. بلغ الوداد بينهما توقعها ارتباطهما على سنة الله ورسوله، عرفت حالات كهذه لو أخبرت بها لما اقتنع أحد، ربما لا يصدقها إذا قالت له إن الراقصة المشهورة التي تلقب الأولى الآن كانت من المترددات عليها، من يومها وهي فائرة ساخنة، رغم الفقر وقلة التغذية، في يوم رآها صحفي اعتاد زيارتها والراحة عندها. خلا بها ثلاث ساعات، وبعد تمام هذا الوقت غير العادي، خرج كما ولدته أمه ليقسم بصوت مرتفع، متأجج، أن هذه البنت لو داست البيت بقدمها بعد الآن سيخربه على من فيه، لقد أصبحت زوجته منذ الآن،

كان منظره مخيفا، يرهب أشد القلوب، خافت منه، لكنها هدأته ضاحكة، هل يهددها بدلا من أن يشكرها، ألم تجمع بينهما، ألم تكن سببا؟ فوجئت به ينحنى على يدها، يقبلها ويردد.

«كتر خيرك يا نينة . . ».

تزوجها بالفعل، وأمضى معها سنة، لم ينجب منها، لكنه ولىّ نعمتها بحق، فهو أول من دفع بها، وجعلها تظهر فى السينما، رغم أنه كان يغار عليها من ظلها، لكن يبدو أنها اشترطت عليه ألا تترك الرقص، قالت إن العكروت الآخر، بدلا من أن يتم مشواره مع البنية، فوجئت به يطلبها هى. كانت عيناه زائغتين حتى أنها خشيت على نفسها منه.

سألتها مبتسما.

«وحصل يا نينة . . ».

ضحكت منطلقة حتى أن شخرة مغناجة أطلت لكنها سرعان ما قمعتها.

«كلك نظر يا عنيه . . ».

«نينة» تلك، القوادة العجوز، شبه المشلولة، موازية لمرحلتى الأولى مع مجد، كثيرا ما كنت أتردد قرب الظهيرة على بيت «نينة»، وأخرج منه إلى بهو الفندق العتيق، إلى مجد، ولأن «نينة» كانت مغرمة بالتوفيق والتآلف، فقد استقر أمرى على ثالث من عرفتنى بهن، اسمها نجاة، فى الثانية والعشرين، مرمرية الجسد، لم أعرف

حضوراً مصقولاً مثله، أما تضاريسها فدليل، غير أن ما قربني منها عشقها الحنون، المطلع، لها ضمة استعذبتها مراراً فيما بعد، وأنامل تعرف مواطن الإثارة، أما صوتها فلايعادله فى التأثير إلا استجاباتها الوقورة، المؤثرة، لأنها أبدت انتفاضات لم أعرفها من قبل إذ تبلغ ذروتها، كنت أهدئ حالى، وأطيل أمدى حتى تأتينى رجرجاتها، ويداخلنى زهو لأننى مبتعث هذا، ثم أقفو أثرها، كثيرا ما قالت.

«نفسى . . تتخلص معايا . . ».

أستعيدها بمودة واحترام ورغبة، وأجهل ما انتهت إليه أحوالها مع زوجها صانع الحقائب الجلدية. كان يكسب أحيانا عشرين جنيها فى اليوم الواحد، ولا يبقى منها مليم إلى اليوم التالى، يهوى السينما، إذا دخل بمفرده يأكل السميط مع اللبن المعقم، ويدعو كل من يجلس إلى جواره، ولو معه كفاية من المال ينفقه على الحاضرين، إنه كريم يعود بفاكهة الموسم، والبط والحمام، لكن عندما يتوقف عن العمل يشرفون على الموت جوعا. إنها تخاف الغد، لا تأمن معه أبدا.

«بتنبسطى معاه . . ».

تطرق، أهفو إلى خجلها. أضمها ألثم شعرها، بعد دقائق تجيبنى وهى تتطلع إلى جهة مغايرة.

«بيحب نفسه . . ».

ثم تتدارك أمرها.

«لكنه طيب وابن حلال . . ».

وضعها المائل عندى، جلوسها فى الفراش. اتكاء ذقنها على ركبتيها، تحيطهما بذراعها، عندما تباعدت بنا السبل كان وضعها هذا من أسباب استنفارى، لو فصلت لزاد الأمر عن الحد. وربما احتاج الأمر إلى تدوين يخص أولئك اللواتى عبرتهن ولم أقم. أو اللواتى وردن على مناماتى، وكن أسبابا لسكب مائى بين عالم المجهول ودنيا الحس. ولهذا تفصيل وتحمق. غير أن مايعنينى الآن ازدواجية أمورى وقتئذ، بل إننى أذكر جلوسى ذات صباح إلى صديق حميم يكبرنى فى العمر، يتقدمنى بمسافة ليست بالهينة، قدمت مجد إليه، عرفتهما ببعضهما، لاحظ ضيقى وتململى، سألنى عما أكابده، فأفضيت إليه بما ألاقيه معها ومنها، فوجئت به يسألنى :

«نمت معها؟».

«لا..».

بدا متعجبا :

«تقول إنك تحبها؟»

«طبعا..».

«كيف لم تقربها حتى الآن..؟»

«لأننى أحبها..».

«لن يكتمل حبك إلا بمضاجعتها. أن تعرفها وتعرفك..».

يبدو أنه لاحظ عدم ارتياحى.

«هل غضبت؟»

حاولت أن أحيد صوب وجهة أخرى .

«الحقيقة أنها تحب شخصًا آخر . . » .

تطلع إلىّ بنظرة جانبية ، فيها تساؤل ودهشة لكنه لم ينطق ، ربما أراد الاستفسار عن سبب تواصلها معى ، وأنتظام لقاءاتنا ، وتلميحاتها المقتضبة إلى منزلتى عندها ، وإبدائها الملاحظات على ما يخصنى ، ربما أراد القول إنها بحرصها علىّ إنما تستنفر مشاعر شخص آخر . ربما أراد النطق بهذا كله . بصميم ما يجول عندى . خاصة أننى تأكدت من خصوصية علاقتها بفوزى ، المعيد الشاب بكلية الهندسة ، المتخصص فى تصميم الطائرات ، والمرشح لبعثة دكتوراه إلى المجر ، هذا ما عرفته واستوثقت منه بعد أن تقصيت أحوال المحيطين بها ، المقربين منها ، فى البداية ظننته عمر المذيع فى البرنامج الأوروبى ، كان ودودًا ، مقبلا على الآخرين ، مظهرًا التواضع ، راغبًا فى الصلات ، ربما ظننت لتبادلهما القبل ، كانت المرة الأولى التى أرى أحد أصدقائها يمس وجنتها الرهيفة بشفتيه . عادة لم أعرفها حتى ذلك الحين ، جرى ذلك فى المكتبة عند دخوله . لكننى لاحظت ذلك بالنسبة للآخرين . قبلات مثل المصافحة . لم أشرع قط لخجلى ، وإن أتقنت ذلك فيما بعد ، فيما تلى ذلك من وقت بعيد ، عندما جاء عمرو ترافقه السمراء ، السرحة ، فرسية القوام والطلة ، قدمها قائلا إنها خطيبته . أقصيته عن ظنونى . الغريب أنها لم تذكر فوزى هذا إلا بشكل عابر ، جاء إلى الفيشاوى بمفرده ، وقبل إحاطتى بما بينهما نفرت منه ، ربما لنظراته اللامبالية وتعليقاته الساخرة من أى رأى يُبدى على مسمع منه ، وربما

لأنه صافحني بتحفظ، عندما قدمتني إليه أيقنت أنه هو، خاصة عندما سلمت إليه مفاتيح سيارتها. وطلبت منه أن يسوق لأنها متعبة، انصرفا في الثانية بعد منتصف الليل، وجاهدت كي لا يلوح أثر لفضولي. أين سيمضيان الوقت حتى الصباح، كنت موقنا أنهما متلازمان، كانا يتصرفان كقرينين، متلازمين، لماذا أدفع بنفسي إلى خسارة مؤكدة؟ لأيام عديدة تردد السؤال في وعيي بالصمت والنطق، ولم أعرف أقوى دوافعي إلا بعد فوات الذروة.

لماذا أسعى وراء المستحيل؟ لماذا ألج منافسة غير متكافئة؟ ماذا أريد منها؟ هي له وهو لها. إنه من أسرة قبطية عريقة اشتهر أفرادها بالعمل في القضاء والمحاماة، أما هو فكان علمي الميل، لم يقبل على قسم هندسة الطائرات إلا عدد قليل جدا من الطلبة، كان معظمهم يتجه إلى الهندسة المدنية أو الميكانيكية، لم تكن أهمية الاتصالات بدأت بعد، قالت محدثة عنه إنه عبقري ولديه طموح كبير في مجال هندسة الطيران، وأنه يرى المستقبل لهذا التخصص، حتى وإن ضاقت سبله هنا، قلت معلقا.

«هذا يعني أنه سيعيش بعيدا عن مصر..».

تطلعت إليّ بعينيها الخضراوين، بالعينين اللذين سأكتشف أنني أطلت التحديق طويلا إليهما، وأنهما مركز استعادتي لها في الذاكرة، منهما تبدأ وتكتمل، هكذا، لا أنطق اسمها، ولا ترد عليّ إلا وتلوح نظرتها أولا، تلك البصمة التي كانت تجسد أمامي طلة أخرى، غير أنني لم أنتبه إلا بعد فوات الوقت وانتهاء الأوان.

«لكنك قلت أكثر من مرة أنك لا تتخيلين نفسك بعيدا عن مصر . . » .

«طبعا . . لكن هذا لا يمنع قضاء مدة للدراسة . . للتجربة . . » .

تطلعت إليّ مباشرة .

«المهم أن يعيش البلد داخل الإنسان . . هل تتصور أن كل إنسان هنا يعيش في مصر . . أعرف كثيرين هنا ، لكنهم هناك بعقولهم . . بأمزجتهم . . » .

تصاعدت حدتها ، قالت إنها تلاحظ عدم مصارحتي لها بما أفكر فيه ، وإنني أقول أشياء لأخفي أخرى ، قالت إن هذا مرهق لها . مرهق جدا . .

«تعرفين حرصي عليك ، تعرفين أنني لا أقصد إزعاجك وليس إيلامك . . » .

«إذن كن صريحا معي . . » .

لزمت الصمت ، تمنيت انتهاء اللقاء ، رغبت الانفراد حتى أستعيد ما توجهت به إليّ ، لم أعتد منها تلك الحدة ، حتى إذا بدأت لا أعرف كيف أواجهها ، كيف أرد عليها؟ لم تنه قعدتنا ، إنما راحت تتطلع إليّ وأنا أحيد بعيني ، وعندما سددت نحوي سؤالها عما أفكر فيه الآن ، الآن بالتحديد ، قلت على الفور إنني أفكر في مصارحتها بكل شيء غدا في الخامسة ، قالت ، ولماذا لا يكون ذلك الآن؟ طلبت منها أن تتحملني وألا تقسو عليّ ، مالت إلى الأمام . لمست يدي بأطراف أصابعها ، قالت بهدوء رقيق وحنو بادي . .

«أنا لا يمكن أن أقسو عليك، أنت إنسان طيب . . لكنك غير صريح معى . . ».

«غدا، فى الخامسة . . ».

«يعنى لن نتكلم الآن . . ».

«غدا . . ».

تراجعت إلى الوراء قليلا، ناديت صاحبنا النوبى أسأله الحساب.

«يعنى نقوم؟».

لم أجبها، قبل بلوغها مدخل المكتبة توقفت.

«غدا . . الخامسة . . ».

قالت مبتسمة

«داخلك دكتاتور . . ».

أفسحت الخطى، آويت إلى ركنى القصى فى المقهى أتدثر برائحة الدخان، وأسلو بالنظر إلى قرقرة النرجيلة وفقاقيع الهواء فى المياه، يمكننى استعادة لحظات البوح، تلك العلامات الفاصلة والتى يتوقف فيها الطرفان ليقول أحدهما للآخر حقيقة ما يشعر به، أحيانا تكون لحظة اعتراف، وأحيانا مكاشفة هادئة، وفى حالات أخرى مجرد كلمة بعد تمهيد معقول. ولو أننى فصلت لطال الأمر وخرجت عن القصد، لكننى ربما أفرد فصلا خاصا بمنطوق بوحى هذا، لماذا لم أفض إلى مجد فى اللقاء عينه؟ لماذا سيطرت علىّ فكرة اليوم التالى.

وفي تمام الخامسة، مع وعيي بأنها يمكن أن تحتذر أو تقص نفسها عني. أو تأتي تصرفا مفاجئا، عصبيا يصعب معه أن أبدي رد فعل مضاد؟

إنه التدرج، إنها المراحل التي ينبغي قطعها قبل الوصول، عندما أخلو بمن رغبت أطيل التأني، أفضل الملامسة، ثم التجرد مما يحجب المعالم والتضاريس على مهل، أوثر أن أؤدي ذلك بنفسي، هذا ما نما معي واكتمل عبر ترحالي، قبل نطقي أردت أن أقص عليها طرفا من خيري، أن أبسط حالي، بالضبط كما أراه وقتئذ، كما أجد نفسي. لكن أحقا كنت أعرف عنها ما يجب أن ألم به؟ مع الوقت أدركت أن أمورا جمة لن تتكشف حتى لمن يعنيه الأمر، لصاحبها، لمحورها، وأن الرحيل النهائي سيتم ومغاليق كثيرة ستفض، وأن ما نعرفه ليس إلا بعضا من كل، بل ربما تكون تلك المعرفة مجرد تصورات، اقتنعنا بأنها يقين، وربما يعيش معنا ويرافقنا أمر لا نكتشفه ولا نعيه إلا بعد فوات الوقت، أو قرب التمام، ويدخل في ذلك هذا التدوين كله، وذلك البوح المتأخر، بعد تمام إدراكي أنني لم أكن أسعى إلا وراء طيف. وأنني اجتهدت لأقتفي وجودا غير موجود، حاولت رصد ملمح هنا أو مَعْلمة في تلك. ولو أتيح لي الأمر كله الذي انطلقت منه لوليت وأنصرفت عنه، ولهذا كله تفصيل، فلأكف حتى لا ألغز! لم أنم إلا بعد ارتفاع أذان الفجر، في تلك الأيام لم تكن هناك مكبرات صوت، إنما كان هدوء مقيم، وفراغات تملأ. كان صوت المؤذن الجميل الذي يرتقي مئذنة مسجد مولانا الحسين يصلني في الدرب واضحا، مؤثرا وكان ذلك إيذانا باستيقاظ أبي، وخروجه لأداء الفرض في

المسجد، عادة لم ينقطع عنها قط حتى انتقالنا إلى ضاحية مدينة نصر، واضطراره أياما عديدة إلى قضاء الليل كله بجوار ضريح مولانا.

ثمت تلك الليلة عند خروجه، واستيقظت مبكرا، أمضيت وقتا بمفردي وما شغلني وقتئذ المدخل. كيف أبدأ؟ كيف أصف حالي؟ وكيف أعبر بدقة عما يجول عندي بشأنها؟ ثم انتهيت إلى ما ذكرته. أقصد بسط حالي. ألا أخفي شيئا. حتى ما قدرته بالنسبة لمهندس الطيران هذا، رغم توقعي ويقيني إلا أنني صُعقت عندما قالت إن بينهما صلة، ربما تؤدي إلى زواج، وربما لا.. لم تفكر تماما، ولم تصل إلى شيء محدد، كل منهما اتفق مع الآخر أن يترك نفسه لتطور الحال، كررت مرة أخرى حديثها عن عبقريته، وذكائه وطموحه، وتطور فكره، ولما قلت لها إنني ينبغي توقفي وكفي احتراما لما بينهما. فوجئت بها تقول:

«لا.. هذا لا يمنع.. اتفقنا على حرية كل منا..».

قلت ضاحكا

«ما هذا.. سارتر وسيمون يعني؟»

رفعت حاجبيها مع إغماضة عينيها الخصبتين، تلك الحركة التي أحب رؤيتها والتملي منها، إذ تعني ابداءها الوداد، لكنني غبي، فلم أتلق الرسالة أصلا لكي أحاول فضها أو أستيعابها، لم يكن مطروحا بالنسبة لي مجرد لمسها، بل إنني لم أضاجعها بخيالي، حتى في سفرها وعودتها في إجازة بعد عامين، حدث في أغسطس أن جاءت

إلى الفندق ترتدي فستانها الأزرق المنقوش بزهور بيضاء صغيرة، قماش بسيط وتفصيل انسيابي، خلو تماما من التكلف، حدث أنها انحنت لتتناول شيئا ما سقط منها، اتيح لي أن أرى نهديها من أعلى، لم تكن ترتدي مشدا، صغيران مثل فرخي حمام.

دائما أستعيد رؤيتي لهما أول مرة أكثر من لمسي لهما واحتوائهما بكفي ومص حلمتيهما الزهريتين كما جرى في زمن تال، ولهذا تفصيل سأذكره في محله إن سمح الوقت.

ما علق عندي رؤيتي الأولى تلك الخاطفة، المختلسة، غلب عليّ فضولي فلأول مرة أرى بعضا من معالمها تحت ثيابها، ودهشتي أيضا للفرق بين الظاهر النحيل والمستتر الثري. الخصب، الوروار، غريب أنني لم أعرف الإثارة عند رؤيتي لهما، لم أستعدهما بقصد ولم أرهما في حلم. رغم استدعائي لنهود وأرداف وسيقان وتكوينات أنثوية عابرة لمجالي. قادمة من مجهول، ماضية إلى مجهول. لم تكن حتى سفرها موضوعا حسيا أو هدفا لرغباتي رغم هواي بملاحتها وهفوي لحضورها وتهيامي بها، وضناي لتقلباتها وأحيانا جفوتها نحوي.

أمام المطار عندما حان دوري لمصافحتها، شبت على أطراف أصابعها لتبادر بتقبيلي، مس شفتيها العابر هذا ما زال عندي. همست.

«الآن ترتاح مني..».

فى مواجهة عباراتها المفاجئة، الصارمة، أعتدت لوإذى بالصمت تحاشيا لتصعيد لا أرغبه، وسوء فهم يكلفنى عسرا. تلك المرة لزمت السكوت لأنها أصابت، رغم ثقل فراقها علىّ وإدراكى لما سينتظرنى من أويقات مُرة، إلا أننى كنت هادئا لبلوغ حالى معها حدا فاصلا.

كنت أظن أنهما تزوجا، لكننى بعد أمد طويل أطلعت على غير ذلك، كانت مسافرة لتلحق به فى المجر التى يعد فيها رسالته العلمية لنيل الدكتوراه، هناك أمضيا سنة تقريبا يعيشان تحت سقف واحد. متقبلة لكل ما يبديه حتى علاقاته العابرة أو المقيمة. حدث بعد بوحى لها أن عرفت من صاحب لى راحل عن دنيانا الآن أن من تحبه مجد وتتبعه كظله وتصفه بالعبقرى أقام صلة ببنية رقيقة، كانت تدير ناديا خاصا للسينما، يعرض الأفلام التى لا يراها الجمهور ولا يُسمح برؤيتها إلا للنقاد والخاصة باشتراك معلوم. قال صاحبى إنه بمجرد ظهوره أفسد كل شىء. لديه قدرة غريبة على التأثير، فى إحدى جلساتنا بالفندق العتيق، قلت لها بشكل عابر.

«هل تعرفين نادية عازر؟..»

تطلعت إلىّ. قالت إنها تعرفها ومطلعة على ما بينها وبين فوزى، تماما كما يلم بصلتى بك.

«لكن أمرنا مختلف، ليس بيننا شىء!».

مالت إلى الأمام محدقة تجاهى مباشرة، وعبر نظراتها أدركنى تعبير غامض، لم أنفذ إلى مغزاه إلا بعد فوات الوقت وانتهاء الحقبة! ولأنها ممن يعلقنى بى حتى تلك الهنيهة فإننى أكاد أسمعها وأراها!

توابـــع

حقبة ليست هينة انقضت قبل إدراكي أن مرجعية الأمر تكمن عند أخرى سابقة ، نأت وصار وجودها متساويا مع عدمه . ظننتها مبتدأ ولم تكن إلا خبرا مؤجلا وفرعا لأصل ذوى حضوره ، وبقى أثر منه . أصل الهزة بعيد ومركزها قصى . لم أنتبه إلا عندما شرعت فى التدوين . أحيانا يكون التقييد عونا على الكشف والاستدلال . فكم من أمور تتصل بى سأمضى قبل فهمها وإدراكها!

حتى الآن أقاسى خيبات تتبع سوء تقدير أو اندفاعة ، يغمرنى خجل يقيم ويجثم كلما استعدت ظهور هذه الصبية بالباب ، خلعت قلبى عندما رأيتها . هى . . بالضبط مجد ، أخذنى التماثل حتى أننى لم أنتبه إلى ربع قرن يفصل بيننا ، دونت ذلك فى نص عنونته بشطف النار ، رغم أننى سطرته لكننى لا أستعيده ولا أقرأه ، لما يغمرنى من ندم وكسفة إذ تمثل لى رجفتها ونفرتها القصوى بعد أن لاح منى ما يشبه التلميح ، أمنت جانبى ، استكانت إلى صديق أبيها ، من يماثله عمرا ورافقه زمنا ليس بالهين فى ظروف وعرة ، من قدرت أنه سيكون لها عونا فى المدينة الشاسعة المدججة بالمخاطر ، فإذا به يسفر عما تصورت أنه مصدر خطر ومباغتة ، حدثها أبوها عنى وقص عليها بعضا من أخبارى ، سلمها عنوانى وسبل الوصول إلىّ حتى تستعين

على الصعاب، فإذا بها تجد ما تخشاه فى موضع اللواذ، لم يؤلمنى أمر مثل تحديقها مرعوبة، وجلة، وعند انصرافها لفظت ما تشعر به دون تنميق، بتلقائية موجعة.

«أخاف.. أخافك..».

منذ ابتعادها مضطربة، وجلة، لم يقع بصرى عليها، لم أرها صدفة، تجنبت تقصى أخبارها مع توفر الوسيلة ويسر الإمكانية، حتى الآن لا تعرف أن حضورها تكرار لحضور هيمن علىّ وشدنى إلى مداره. كنت مأخوذا بالشبه. ذات صباح بعد حوالى سنة من قدومها قرأت نعى والدها فى صفحة الوفيات بالأهرام، طالعت اسمها بين كريماته الثلاث مقترنا بمكان عملها، شركة بترول، تمنيت ألا تكون صارحته بما بدر منى، لكم لمت نفسى لتسرعى مع أننى جبلت على الكتمان حتى أن بعضهن ذهبن ولم يحطن خبرا بما أضمرته.

عندما بزغت فى مجال رؤيتى لم أتعرف عليها إنما على مجد فى الصورة التى تجلت لى فيها أول مرة، كنت أقترب من الخمسين، وكان لها من كل فصل تسعة عشر ربيعا وصيفا وخريفا.. ظهرت وأحوالى مغايرة لما استقر عليه حالى زمنا ليس بالهين. لم أعد أخفى، بل صار أمرى إلى مبادرات تتجاوز المحاذير وتغفل عما هو كائن.

ظننت أنها مجد فى هيئتها الأولى، هى.. هى.

لماذا صرت إلى هذا الحال المغاير؟

ربما لبدء إدراكى قصر الفرصة المتاحة، ما كنت أبوح به فى قديمى

بعد كتمان طويل صرت أقدم عليه بعد لقاء أو اثنين، أو عند طق الشرارة، هكذا صرت إلى تلك البنية وإلى «لور» التى دونت قبسا من أخبارى معها فى كتاب التجليات، كذلك فاليريا الروسية التى أقمت لها نصبا من المعنى واللفظ فى رسالتى إلى صاحبى «رسالة فى الصبابة والوجد» فليطالع من يرغب الاستزادة.

لهن جميعا المنة وأصداء الأصائل والنهارات الجلية والليالى وما وسقت، وشتى مصادر الهفوف، وما يؤشر وما يدل. ما أعيه دهشا أنهن كلهن لسن إلا أصداء للحمراء، لسن إلا مسارب تفضى إليها. بعد إدراكى هذا أجتهد لأقف على ما يجمعهن بها، ما يتشابهن فيه معها؟

بالتأكيد يتوافق بسوق فاليريا وطلتها. أما لور فمنها النظرة المنبعثة من عينين منحرفتين قليلا فيهما معنى آسيوى ربما أنتقل مع تاجر أو درويش أو رحالة عبر طريق الحرير إلى بلاد البلقان، لا يمكننى التعيين، فمن له الوقوف على سلساله، عرفت أخريات لكننى لم أدرجهن ولم أشر إليهن لاختلافهن ونأيهن عنها، ربما لهذا لم تدم أحوالهن ولم تثمر. لم ألزمهن رغم إقبال بعضهن وبوحهن.

ثمة عناصر للشبه تستعصى على الإدراك. المؤكد وهن صلتى بكل من لا يجمعها شبه بالحمراء، أو لا يتردد عندها صدى منها، لم أتعلق بهن ولم أمكث. حتى وإن خفق القلب، وجرى توالج الكونين. فكأنهن أولئك العابرات، اللواتى عرفت أجسادهن فى بيت «نينة» زمن جهلى ونقص معرفتى بكلية الأمر.

يتأكد لى الآن ما خفى علىّ أزمنة ظهورهن وحلولهن عندى لدى، كلهن منبثقات عنها، لا تربطهن صلات بها . هؤلاء ربما أفردت لهن تدوينا خاصا فأمرى مع بعضهن ليس بالهين، منهن ثريا التى عرفتها فى درب الطبلاوى، وكانت ذات كبرياء وصهيل صامت . كذلك سلسبيلة ابنة صاحب البيت المواجه فى الدرب الأصفر، وهبة النيل التى عرفتها بعد كد وأوشكت لكننى لم أفعل، وميرهام الفارسية ابنة تاجر الأبسطة التركمانية ، وسندس المغربية، الأندلسية، الموثقة بالضنى والفحيح الأتم، أنزلتنى منها مكانا حانيا وأحاطتنى بالرعاية والبذل، دللتنى ورققت لحيظاتى، لكن مضت أمورها معى إلى عكوسات جافية، أما ورقاء النجدية فمنها وإليها لهب الجمرة التى لم أعرف مثيلها، القمّاطة، الحاضنة، المستعصية، منيعة الزوال، تلك لها تدوين يطول شرحه لا تسمح ظروف النشر الآن بإشهاره على الخلق، أودعته مكانا قصيا، عله يرى النور يوما، حتى بعد أن أقضى، عندما يعى قومى وتنزاح عنهم مغاليق! كذلك سأشهر مادونته عن العابرات اللواتى لهن قبس منها، غير أننى بتأثير العجلة والوعى بضيق الوقت، وقصر المتاح مع توقى إلى المزيد، دفعت بأحوالى إلى مالا أحبه وما لا أرضاه ولهذا تفصيل!

رشحة الصادة

أحيانا أضيق باستعادتي بعضا مما جرى . فما البال بحالى عند الإقدام على تسطيره غير أننى مضطر لتمام الأمر وجلاء الوضع ، لن أفصل ، إنما سأوجز مع حرصى على ألا أخل . ذلك أنى سافرت فى مهمة تتصل بعمل متعلق أمره بمؤسسة عملت بها لمدة ثلاث سنوات كنت فى بداية أمرى . لأن لى صلات بمؤسسات أجنبية جرى تعامل وتبادل معها . أوفدت مبعوثا لبدء اتصال يتوقف عليه أمور عديدة .

لم يحدث أثناء قيامى بمهام متشابهة ، وترددى مرات على مراكز مختلفة من العالم ، أننى وجدت الحال مشابها لما كان عليه حتى لو قصر الفارق الزمنى ، ولم يتجاوز أسابيع معدودات عند وصولى أخبرونى أن السيدة التى أتعامل معها منذ سنوات طلبت إحالتها إلى التقاعد ، وجرى توديعها فى حفل فاضت خلاله المشاعر ، باعت شقتها فى المدينة واشترت منزلا فى الريف القصى حيث استقرت ، طلبت هاتفها لأبدى لها الجميل ، فى نفس الوقت أخبرنى صاحب لى أن شابة صغيرة السن ، لكنها على كفاءة رفيعة ، وتعمل بأساليب حديثة ، حلت مكانها ، وأنه اتفق معها على موعد صباح الغد ليقدمنى إليها ، لم يشغلنى أمرها إلا بالقدر الذى أفكر فيه عند لقاء من لا أعرفه

مع وجـود صلة تستـوجب ذلك . اقـتـرحت على صاحبى أرمنى الأصل ، فـرنسى الأم ، أن نتناول العـشـاء غـداً ، تلك عـادة . إمـا أن يدعونى أو أدعوه ، قال إنه مشغول غداً ، فليكن ذلك بعد غد ، اتفقنا على اللقاء فى مطعم مغربى صغير ، فى منطقة سكنية بعيدة عن المركز ، ولأننى أعرف الطبخ المغربى وتناولته مرارا فى دياره الأصلية ، أدركت جـودة ما يقدمه هذا المطعم الذى عـرفته عندما دعانى إليه صاحب مقيم فى مرة سابقة مضى عليها سنوات ، منذ ذلك الحين اعتدت التردد عليه كلما نزلت هذه المدينة ، أو دعوة صحبى إليه .

صباح الغد عبرت المدخل المؤدى إلى قسم العقود حيث كانت تعـمل آن التى تقاعدت والتى أدى غيابها إلى مس من أسى لحقنى . ذلك أننى طالما توقعت رؤيتها وخروجها لاستقبالى ، مبدية ترحيبا ومودة ، كنت أتوق إلى دهشتها الطفولية البادية فى عينيها ، للأسف لن تنتظرنى بعد الآن ، لن ألقاها .

فوجئت باختفاء مكتبها العريض الذى تصور الغرف الفسيحة مكانه آخر أصـغر وأريكة فسيحة ، ومنضدة فوقها طابعة حديثة ، صافحت زميلتها فى المكتب ، لا أعرف إلا الاسم الأول لكل منهما سألتهما عن الموظفة الجديدة كلير .

عدت إلى بداية الممر ، لم أنتبه إلى وجود هذا الباب الرقيق عند دخولى . فوقه بطاقة معلقة تحمل اسمها وشعار المؤسسة ، يبدو أن هذه الغرفة أعدت من أجلها ، لا أذكر وجودها الخشب واضح أنه حديث ، ما زال بلونه الطبيعى ، لم يُطْل بعد ، طرقات ثلاث أعقبها صوت خيل إلىّ أنه مألوف .

تفضل . .

دفعت الباب . بوغت . كنت فى مواجهة مجد ، حجمها ، غلاميتها ، طلتها ، تطلعها ، حضورها ، تماما كما اعتدت جلوسها فى البهو ، أو عند ظهورها ، موقف مغاير تماما لما وصفته فى التدوين المعنون بشطف النار . ما أراه مختلفًا ، مثول كامل لسائر المحسوسات المدركة من لون بشرة ودقة سعى ، وشعر غلامى القصة ، العينان فقط مغايرتان ، عينا مجد خضراوين تتجاوبان مع ملامح وجهها . ابتسامتها مع دهشتها المستمرة ، أكتشف الآن . . الآن فقط أن دهشة آن الطفولية عند الإصغاء . ترديد لدهشة مجد ، لا أدرى هل لاحظت ما جال عندى ، ولكن ملامحها الجامدة تراوحت بين الترحيب والفضول ، فضول عادى مما يعد عند اللقاء الأول بين طرفين يجهل كل منهما الآخر ، ولأنى جبلت على كتمان ما عندى ، أثق أن أثرا من دهشتى لم يتسرب إلى قسماتى . أبدت لطفا متحفظًا ، وعندما استفسرت عما إذا كنت أرغب فى شرب قهوة شكرتها ، أعرف تلك الآلة الموضوعة بالخارج ، وإلى جوارها أكواب من البلاستيك ، قهوة خفيفة التركيز لا أستسيغها ، كما أننى كنت أبالغ فى تحفظى حتى لا يتسرب شىء مما بدأ عندى .

قالت إنها تعرفنى من آن ، حدثتها عنى ، قلت إن صلتى بآن ترجع إلى زمن طويل ، لكن الغريب أننى أشعر كأننى التقيت بها من قبل ، أعرفها من وقت ، أبدت تأثرًا . قالت :

«هذا لطف منك . . » .

قالت إنها كانت تعمل فى مؤسسة أخرى مجال عملها دول البلقان وشرق أوروبا، لكنها لأول مرة تطرق الشرق الأوسط، خاصة الدول العربية، تعرف مصر طبعا مما درسته وقرأته عن حضارتها القديمة.

قلت إننى أتمنى رؤيتها فى القاهرة، عندئذ سوف أكون دليلها . .

كررت مرة أخرى

«هذا لطف منك . . » .

كان لنبرها نغم خاص، أنثوى، لم أحد بنظرى عنها، رأيت وقفة مجد أمام المسرح القومى، وسعيها فى شوارع وسط المدينة، ودخولها بهو الفندق، وتهلل ملامحها عند عودتها الأولى بعد غياب عام فى الغرب، وإقبالها وتنوع الضوء عبر ملامحها، وفيضها عند صمتها وميلها لحظة الإصغاء، قالت فجأة:

«علمت بدعوتك لأن غدا السبت إلى العشاء».

أومأت برأسى صامتا، أنّى لها أن تعلم ما يجول عندى، ما أستدعيه بفضلها ولشدة حضورها، لم أسأل نفسى إذا كانت رصدت أم أنها لم تنتبه إلى سطوع الخواطر فى حدقتى وشدة تطلعى لانبثاق ما ظننت أنه انقطع عنى وزال أثره منى. كنت أواجه حضورين فى واحد، القديم طاغ والحاضر ظاهر، قلت إنه لما سيبعث السرور عندى قبولها دعوتى، قالت إن غدا عطلة، وليس لديها ارتباط فى المساء، ستجىء مع آن. قلت لها إننى لم أتفق بعد على مكان اللقاء، لكنه سوف يكون قريبا من مطعم مغربى تفضله هى اسمه سندباد،

ويعد طول تردد على مطاعم أخرى فضلته ، كأن طعامه معدّ في بيت مغربي قديم ، زوجة صاحبه تطوانية ، أندلسية الأصل ، تطبخ بنفسها . قالت إن ذلك مثير . خرجت إلى الطريق القديم ومنى فيض ، تكمن الخفقات القديمة فنظن أنها بادت ولن تعود أبدا ، ثم يشب سبب في لحظة ما ، مكان ما فإذا بما خمد ينتفض ويسعى رغم انقطاع الصلة المحسوسة بين ما كان وما يكون ، سعيي عبر الطرق مرحا . لم يعجبني أحد ، لكنني آثرت الاحتفاء بتلك البداية المبشرة ، المنبئة . قصدت مطعما قديما أفضله ، تعرفت إلى من يديرون به الخدمة ، حتى أن المشرفة عليهم ليتهلل وجهها عند رؤيتي كأننا صحب قدامى رغم تباعد المسافات بين قدوم وآخر ، لم أطلب الزجاجة الصغيرة التي اعتدت أن أحتسيها متمهلا مع الطعام المتقن ، أبدأ بثمار البحر وأتبعه بما يسعى على البر . أشرت بيدي إلى الحجم الأكبر من الزجاجات التي يعبأ فيها نبيذ المحل ، هكذا نصحني صاحبي مصطفى المقيم عارف بأمور الطعام وتراتيبه هنا ، أن أطلب النبيذ الذي يختص به المطعم والذي يقدم في دورق . أو زجاجة غير مغلقة ، لأنه يكون جيدا ومعقول السعر ، وبالطبع أملى عليّ أصنافا من الأنواع المعروفة ، المشهورة ، والتي تحمل أسماء مناطق في أنحاء مختلفة ، ذاع أمرها واشتهر . ليس في فرنسا فقط . إنما في بلدان شتى ، المطعم قريب من الفندق ، فقط ناصيتين ، لم يحدث أنني وصلت إلى درجة الترنح أو الميل ، لكنني خشية وقوع الأمر مع توالي الخواطر وتنامي بهجة متصاعدة ظننت أختفاءها منذ وقت ليس بالهين لأسباب شتى يطول أمرها ويصعب تفصيلها . آثرت هذا المكان فأشد ما يؤرقني وقوع

مكروه لى فى ديار لا يعرفنى بها إلا نفر محدود، لا أتقن لسانها بما يمكننى من الشرح والمفاوضة .

عندما اقتربت من المقهى الصغير الممسك بناصية طريق ضيق مرصوف بالحجر يؤدى إلى بيت آن رأيتهما معا ، يقفان تحت المظلة ، مجد أرق حجما ، هكذا كانت تبدو فى الليل ، عندما تنتظرنى أمام مسرح أو دار سينما فى وسط المدينة . تأخرت خمس دقائق لزحمة الطريق ، أفضل استخدام الحافلات العامة لضيقى بأنفاق المترو تحت الأرض ، ولخشية الغريب التى تلازمنى دائما . أسرعت الخطى عندما رأيت المقهى مغلقا ، لا يفتح بعد ظهر الأحد ، لا أعرف ذلك ، اعتادت آن الجلوس به ، خاصة لتناول إفطارها ، التقيتها مرتين من قبل هنا ، يعرض لوحة لفنان واحد تتغير أسبوعيا ، فى المرة الأولى تحدثت إلى رسام تخصص فى الفراشات ، رسم أنواعها واستلهام ألوانها وخطوطها ، فى اللقاء الثانى رأيت اللوحة ولم ألتق صاحبها ، مساحات من الألوان ، كلها مشتقة من زرقة البحر والسماء الساجية فوقه ، وافقت آن على إعجابها ، أدركت أننى أمام أسلوب مغاير ، مختلف . فى المرة التالية فوجئت بها تقدم إلىّ كتيبا صغيرا ، مستطيلا لهذا الفنان ، يحوى معلومات عنه وصورة له فى مرسمه ، وأربع وعشرين لوحة ، تأثرت لذلك ، قبلتها شاكرا .

أبديت اعتذارى ، قالت آن إنها لم تخبرنى بإغلاق المقهى ، نسيت ،

«تعرفين الطريق إلى سندباد . . لك القيادة . . » .

قالت متسائلة .

«ألن يضايقك المطر؟» .

كنت ممسكا بجريدة عربية تطبع في لندن، رفعتها فوق رأسي، لم يكن المطر غزيراً، يمكنني المشي إلى جوارهما، تساندا فالمظلة واحدة. كنت أحيانا أسبقهما، ولحظات أتخلف عنهما. ألتفت أحيانا إلى آن، غير أن قصدي مغاير، أجتهد لكي أدرك مجد ببصري، ترتدي سترة من الجينز. وبنطلونا من نفس اللون، وحذاء أبيض. كانت تبدو وكأنها خرجت إلى مباراة رياضية أو للمشي في حديقة أكثر منها ملبية دعوة العشاء، إنها بساطة مجد عينها، لم تضع المساحيق قط، قالت لي مرة إنها لا تريد أن ترتدي وجهها مغايرا، عندما أستحضرها بالمخيلة، لحظات هبوب الحنين وتحرك الكامن، أو عند تحديقي إلى اللامكان خلال أسفاري عبر نافذة طائرة أو قطار أو عربة أو جلوسي أمام البحر، أراها ساعية في ثياب محدودة، بسيطة، ما يمثل أكثر من غيره ذلك الجاكت البني من جلد الشمواه ولي عنده وقفة وزفير، إنها بساطة مجد التي أعرف والتي تمنيت رؤيتها في أخريات اقتربت منهن لكنني لم أوغل.

بقدر حرصي على إطالة النظر إليها، بقدر اجتهادي لإخفاء اهتمامي وتصويبي، ليس تهيبا منها، لكنني خشيت افتضاح أمري أمام آن، إذ إنني جبلت على الكتمان، خاصة في بداية سعي لا أعرف حدوده، وإلام يؤدي، لكنني عند ذلك الظرف كنت أواجه امتدادا ومثولا لما انقضى، ظرف مغاير لما وصفته في تدويني «شطف النار»،

فالبنية التي دخلت مكتبي ذات ظهيرة كانت صغيرة السن. تقصد صاحب والدها وزميله في المعتقل، ولكن مجد في هذه المرة فرنسية، ممنومة مماثلة، ربما في حدود الثلاثين، لعلها تدرك أمري، كما أن في طلبها صحبتنا وحضور العشاء رغبة في القربى، أو إبداء إشارة، أو التلويح بنسمة مودة.

أبدى المغربي ترحيبا، يعرف آن جيدا، تحدثت معه عن المغرب، عن زيارتي لتطوان مدينته، وتعرفي على بعض أبنائها، والجمال الأندلسي الذي تحتفظ به ذاكرتي من ملامح فتياتها.

عندما أستعيد تلك الليلة ينتفي ما عداها، حتى بعد تطور الأمور، جلستها، اتكائها على المسند، تناولها الطعام من فوق الصينية المستديرة. تتوارى آن وصاحب المطعم الذي تعامل معنا كأننا ضيوف في بيته، ثم قدم إلينا زوجته التي خرجت من المطبخ لتصافحنا وتسألنا رأينا في الأكل، ثم تخصنا بطبق من الكسكسي رش فوقه السكر والقرفة وحبات الزبيب، وعندما لمح غزارة المطر أصر على أن يصحبنا في عربته حتى موقف التاكسي القريب.

كنا في الدائرة الثالثة عشرة، جنوب باريس، قرب باب إيطاليا، وفندقي في الدائرة السابعة، قريب من الأنفاليد وبرج إيفل، لم أختره ولكن المؤسسة التي جئت ضيفا عليها حجزت فيه، تسكن آن على بعد خطوات، سيكمل صاحب المطعم برفقتها. سألت «أين بيتك..؟».

قالت إنه قريب من الكوليج دو فرانس، في الحي اللاتيني.

«أينما كان سأصحبك . . لن أحيد كثيرا عن طريقي . . » .

عندما جلسنا فوق أريكة واحدة . جد متقاربين ، حدت بنظراتي عنها ، من السهل التملي والتزود ممن نرغب في جمع ، لكن عند الانفراد أخشى افتضاح أمري ، أو ظهور ما يدل على ما لم أسفر عنه بعد ، لا يمكنني أستعادة تفاصيل الحوار المتكلف من جانبي ، والذي ختمته قائلا :

« لو زرت بلدي يوما ستكونين ضيفتي» .

لم يغب عني ، تهلل صوتها .

«لطف منك . . سأرى . . » .

صافحتها بحرارة ، عدت إلى العربة منفردا ، مسترجعًا كل لحظة ، موقنًا من حضور مجد ، تماما كما عرفتها أول مرة ، الأمر يزداد وضوحه واختلافه عما وصفته في شطف النار ، في المرة الأولى ، رأيت مجد أقل من عمرها الذي عرفتها فيه بسبع سنوات على الأقل ، لكنني الآن في مواجهة من رأيتها أول مرة أمام المسرح القومي . القبطية ، الصعيدية ، المولودة في أبو قرقاص ، حفيدة الباشا ، من تناولت معها العشاء الليلة هي من عرفتها منذ سبعة وعشرين عاما ، وفدت إليّ وثبت حضورها فتلقيته ممتثلا . لم أدهش لتزايد الجذبة عندي بعد توديعها ، حتى أنني تقلبت مرارا في الفراش لم أثبت على وضع لأكثر من دقيقة ، ورحت أحاول احتواء حركتها ، حدودها ، متسائلا ، ماذا تفعل الآن؟

هل تقعد؟ هل تتمدد؟ هل تقرأ.

هل كان بانتظارها صاحب؟ هل تعيش بمفردها؟

أستعيد متفحصًا لهجتها عندما طلبت المجيء أو بدقة أبدت رغبتها من خلال التساؤل، لهجتها تنبئ بوحدة، إذا كان لها صديق أو رفقة، فلماذا تقضي مساء السبت بمفردها؟ ربما يكون على سفر.

عند الثالثة فجراً خشيت طلوع النهار بدون نومي، أمامي رحيل، لابد من التواجد في المطار عند الثانية عشرة، ثم الإجراءات، والطيران لخمس ساعات، اضطررت إلى ما أتحاشاه دائما، أو أحاول التقليل منه، ابتلاع قرص مهدئ، يساعد على النوم، مع وعيي خطورة ذلك، لشربي زجاجة نبيذ وردي مغربي، معتق، أحب اسمه، «بوالأعوان»، وأضفت إليه من عندي كلمة سيدي فأصبح «سيدي بوالأعوان»، وهذا مرتبط عندي بحالي مع لور. إذ تعرفت عليه معها، وأتقنت تذوقه بصحبتها، استعدت ما أخبرني به صديق مجرب بخطورة ابتلاع المهدئات بعد شرب الكحول، لكنني عللت الأمر بانقضاء بضع سويعات، وقلة نسبة الكحول في النبيذ عنه في المشروبات الأخرى، الحقيقة أنني كنت مدفوعا مضطراً إلى المخاطرة، فلا أدري مدى تحملي لسفر لم يسبقه أي قدر من الراحة؟ استيقظت متعبًا حتى أنني أمضيت وقتا أسند دماغي إلى يدي، مغمضا عيني، مطرقا، لكن شب داخلي أمر لم أعرفه منذ زمن، تلك الطاقة خفية المصدر التي تتدفق مع بدء النزوع إلى أنثى وآخر ملازم يقيني بشكل ما أنها حاضرة. تراني من حيز لا أقدر على تحديده، من مكان لا يمكنني

تعيينه، فمرة تبدو لى معلقة فى نقطة ما من الفراغ، تتطلع إلىّ من مرتفع، أو من نقطة ما تقع خلفى أو أمامى أو تحتى، المهم. . إننى لم أعد مفردا رغم اختفائها وانتفاء مثولها فى مجال البصر، غير أننى واقع فى محيطها. لذلك يجب مراعاة كل تصرف أقدم عليه، صارت مرجعيتى إذا قصدت، أو تراجعت، أو أعربت بشكل ما عن أمر مضمر، يبدأ عندى ذلك الحال بمجرد ردود الإشارات الأولى مع وقوع الاستجابة.

منذ أن قالت لور فى لقائنا الثانى الذى لم يكتمل.

«يبدو أنك تحب البعيد. . ».

كأنى اكتشفت نفسى من خلال جزعها البادى، يغيب عنا ما يصدر منا، حتى نراه من خلال آخرين يهتمون بنا ويتفحصون أمرنا، أرى كل ما مضى من خلال قولها هذا، وكان ممكنا أن أمضى، أن يغلق وقتى ولا أعى، ليس هذا فحسب، إنما وقوفى على مصدر ما مررت به كله، فإذا كنت حقا أميل إلى القصى، النائى، فليس أبعد من الحمراء، إنها العلامة الأولى، والشق الذى منه بدأت، مستحيلة مثل اللحظة العابرة.

بمجرد وصولى إلى المطار بادرت بالاتصال، استمعت إلى صوتها عبر المسجل، إنه صوت مجد، هدوء وعمق غير مدرك ولين أنثوى، رغم أننى أتردد، بل أكره الحديث عبر تلك الآلات، إلا أننى أقدمت.

«أود أن أشكرك على قبول دعوتى قبل سفرى . . » .

فى اليوم التالى دق جرس الهاتف فى مكتبى ، فوجئت بالصوت ، بدا مغايرا لذلك الذى سمعته عبر المسجل .

«أشكرك على رسالتك الهاتفية . . » .

قلت بلا تردد .

«الحق إننى عندما رأيتك شعرت أننى أعرفك منذ زمن قديم . . » .

تأود صوتها متأثرا .

«آه . . هذا لطف منك . . لطف حقا . . » .

«هل تسمحين لى بأن أتحدث إليك عبر الهاتف بين الحين والحين؟؟» .

«سأكون مسرورة طبعا . . بالتأكيد . . » .

«حتى نلتقى . . » .

فضت بها ، أجرى صوتها عندى ما لا يتدفق بتأثير مجريات أعمق وأفدح إلى درجة أن الدفأسرى فى أوصالى فرغبت على البعد بأشد ما أشعر به إذا تحقق القرب ، كتبت أول سطورى إليها على بطاقة عليها رسم لأنثى من الزمن الفرعونى ، تنحنى لتقطف باقة من زهور اللوتس ، صرت أبدأ يومى بالكتابة إليها ، وأحيانا أختتمه ، مرة رسالة ومرة بطاقة ، بعد يومين من اتصالى بها ، لم تكن هناك مناسبة محددة وحتى لا تبدو حيرتى ، أو يلوح ترددى عبر الهاتف قلت متحمساً .

«لا تنس اقتراحي بزيارتك إلى مصر . . » .

«إننى أفكر فى ذلك . . » .

خفضت من صوتى عندما شرعت فى القول إننى كتبت إليها ، وإننى أرجو ألا تدهش مما ستقرأ ، قالت إنها تنتظر .

كلما نزلت مدينة في قبلى أو بحرى أكتب إليها ، أحيانا أشيع أكثر من رسالة فى اليوم الواحد ، أحدثها عما قمت به ، عن فكرة ، عن كتاب طالعته ، بعد أسبوع تحدثت إليها عبر الهاتف ، بادرت بالسؤال عما إذا كانت تسلمت خطاباتى .

«تسلمت ثلاثة . . » .

كأنها تقرر أمراً عاديا . متوقعا . استفسرت عن الخطاب وليس البطاقات .

«تسلمت خطابا وبطاقتين . . » .

لأول مرة أتردد ، لم أعرف ماذا يمكن أن أقوله فى مواجهة هدوئها الذى لم أتوقعه ، بررته بوجودها فى المكتب .

«ما رأيك؟؟» .

«إننى فى دهشة . . » .

«ألم أقل لك محذرا من الدهشة؟» .

«نعم . . » .

«أرجو ألا أكون أزعجتك . . » .

«لا . . » .

استعدت حوارنا مرارا . إصغائى خلاله إلى ما يمكن أن ينم عنه صوتها ، عبر الأحاديث الهاتفية يتحول الإنسان إلى صوت ، وليس مثل الصوت كاشف للحالة الداخلية ، منذ اللفظة الأولى أعرف على الفور إذا ما كان محدثى مقبلا أم متحفظا ، مستريحا أم متعبا ، ذكرت ذلك من قبل ، وأستعيده مرات .

ثمة ما أقلقنى . . حيادية نطقها . تغير لهجتها أو إيقاعها عن الحوارات السابقة ، ثمة شيء ، هل أخطأت؟

فى مثل هذه الحالة أحاول التأكد ، ففى هواجس الخواطر والظنون ، أندفع أكثر مما أنا عليه . طلبت الاشتراك فى الخطوط الدولية حتى يمكننى الاتصال فى أى وقت خلال تواجدها بالمكتب ، عندما أصغى إلى صوتها المسجل أكتفى بالاستماع إليه . التدقيق فى خصوصيته ، عندما كانت تنطق اسمى مجردا أدرك أنها فى حال يسمح بالحوار ، ولأننى كنت أريد الإلمام بكل ما يمكننى معرفته عنها ، عرفت مكان مولدها ، فى مدينة صغيرة بجبال الألب الفرنسية ، تزور أسرتها مرة أو مرتين كل سنة ، لها شقيقة أصغر منها ، إنها فى الثلاثين من عمرها ، قلت صادقا إنها تبدو أصغر ، قالت إن كل من يعرف عمرها يقول ذلك ، تسكن فى شقة من ، حجرة وصالة ، لم أسألها إذا كانت تعيش بمفردها أم بصحبة صديق؟ آثرت بقائى جاهلا حتى لا أصغى إلى رد يقطع أى أمل مرجو . عرفت أنها تجيء إلى المكتب فى التاسعة تماما ،

تنتقل بحافلة عامة، تستغرق المسافة حوالى عشر دقائق، تتناول إفطارها بسرعة قبل خروجها، قهوة باللبن مع ملعقة عسل نحل لا غير، وجبتها الأساسية فى المساء، عند الظهر تتناول الغداء فى مطعم صغير تفضله. يديره عجوز يونانى وزوجته، تفضل المسقعة، والكالامار المقلى، إلا إذا دعت أحد المتعاملين مع المؤسسة إلى الغداء، عندئذ تختار أحد مطاعم سبعة يتوزعون حول المقر، تتعامل معهم إدارة العلاقات العامة.

لم تبد صداً، لكنها لم تسفر عن ود، تجيب بقدر ما أسألها، لا تستطرد ولا تدع فرصة للتداعى، عندما اتصلت بها صباح جمعة قالت بهدوء إنها تعتذر، ليست بمفردها، سألتها عن الوقت الذى يمكننى فيه محادثتها، قالت خلال ساعة، بعد ستين دقيقة بالضبط عدت إلى الاتصال. كنت أعرف أن التسجيل يبدأ بعد أربع رنات عند الثالثة وضعت السماعة لم أشأ ترك أى أثر يدل على اتصالى. ستعرف من المحادثة الناقصة أننى حاولت، رحت وجئت، ولأول مرة أنطق بصوت مسموع متسائلا عما إذا كنت تسرعت، أخطأت الوجهة، ماذا أفعل وثمة معاملات أمثل فيها مؤسسة ولابد من إنجازها، كيف نسيت صاحبى المجرب عندما قال يومها «الخباز الشاطر لا يأكل من المخبز. الذى يعمل فيه، والعاشق الماهر لا يمد البصر إلى من تعمل معه، أو تسكن إلى جواره..».

واضح أنها تتهرب، تتجاهلا..

لكنها قالت إنها ليست بمفردها، وهذا يعنى حرصها على

خصوصية المكالمة، أم أنها تتحرج لانشغالها، لأننى غير مستوثق، عادنى ذلك التردد، الحيرة، الشك، انتفاء القدرة على الاستقرار أو التوجه صوب وجهة واحدة. عندما التقيت مجد وصار أمرى إلى حيرة، مرة تقبل ومرة تدبر، كنت محاطا بصحبى، وكت ألجأ إليهم، أقص عليهم المشورة، أخفف عن أثقالى، لكننى الآن وحيد، مفرد، مع مرور الزمن صار الكتمان من طبعى، وأحيانا أنتبه إلى توحدى وانفرادى رغم الجمع الذى يحيط بى، لكن لكل منهم قدر، وبعضهم أحرص على كتمان ما عندى فى مواجهتهم، وأضبط لفظى وتعبيرات وجهى، أما أصحاب الزمن القديم فتفرقوا، منهم من قضى، ومنهم من اغترب، ومن بقى أخذته المشاغل مع زيادة حرصى وبعدى. يوما اتصلت بمجد، كانت تسكن قرب الهرم فى قصر من حجر، الحديقة المؤدية إليه فسيحة، كثيفة لا تسفر عن البناء إلا عند الاقتراب منه، ردت أمها، طلبت انتظارى لحظة حتى تحول المكالمة إليها، لكنها عادت لتقول إنها لا تجيب، ولا تدرى إذا كانت مستيقظة أم نائمة؟ اعتبرت هذا صداً بلغ معه انزعاجى إلى حد أننى مشيت أحدث نفسى فى الطريق. استعدت تلك الحيرة، وتعاظم البلبلة، وبقدر ضيقى بعدم مجاوبتها بقدر دهشتى الباعثة على راحة ما لأن القدرة على القلق والغيرة وخشية صد المحبوب مازالت قادرة، باقية!

ما تمنيته أن يرن جرس الهاتف فأجد صوتها، تمد أصبعها، تضغط الأزرار، رقمى، أن تطلبنى، أن أسمعها مرة حتى لو سلبا. كأن تعتذر عن استلامها خطاباتى أو تطلب منى الكف عن الاتصال بها. غير أنها لم تفعل، فى يوم جمعة جاوبتنى، بدا مزاجها مستريحا،

رحبت بي حتى أنهـا استفسـرت منى عن مـوعـد وصـولي ، قلت إن الأمر مرتبط بإنهاء إجراءات التعاقد في الشئون القانونية ، ثم ذكرتها بدعوتي إلى العشاء طالبا منها اختيار المكان المناسب الذي تفضله ، خـلال ذروة المحـادثة ، طلبت منهـا الأذن لأن جـرس البـاب يرن . وسألتهـا إذا كان ممكنا أن تتصل بي بعد خمس دقائق ، فـقط خـمس دقائق ، خمس دقائق ، سبع ، ثماني ، عشرة . الهاتف صامت ، بالطبع لـم يكن ثمـة رنين ولـم يكـن هناك طارق . إنما أردتهـا أن تـطلبني ، أن تبادر حتى بناء على رجائي ، لكنها لـم تفعل ، بعد ساعتين عدت أدير رقمها من جديد ، لكن الصوت المسجل أجابني ، في هذه المرة تلوت رسالة ختمتها برجاء محادثتي عندما يمكنهـا ذلك ، لكن لـم يحدث ذلك حتى تكليفي بالسفر إلى باريس لإنهـاء الإجـراءات وتفـويض بالتوقيع ، لحظة تبليغي خفق قلبي دفقة قديمة آخر مرة تردد صداها في صدري عند اكتمال رؤيتي لفاليريا الروسية في طشقند الأوزبكية ، وهذا ما فصلته في تدوين آخر .

حرت فيمـا يجب أن أهديه إليها ، ولأنني أعـرف تفضيل ما يتصل بمصر الفرعونية هناك ، قصدت صاحبا من زملاء الدراسة الابتدائية ، تفرغ لصياغة الذهب ، غير أنه ابتلى بإدمان حبوب مهدئة تقعده طوال اليوم في دكانه محدود المساحة الذي يطل منه على السوق وفي ركن جد صغير منه يقوم بالعمل ، لا يفارق غيبوبته الهادئة ، المستقرة إلا عندما يطلب أحد زبائنه المقربين عملا محددا ، حلق ، قلادة ، سوار . ولأن الصلة بيننا قديمة ، بدأت عندما كان صبيا مازال في ورشة زوج شقيقته ، ولأن أحاديثنا كلها عابرة ، جرت دائما ونحن وقوف ، عندما

أصحب بعض الزوار الأجانب، أو المعارف لشراء قطع صغيرة مشغولة بأسعار ليس مبالغا فيها، أو عند لوازى بالحى القديم، أتقصى ظلال القعدات المولية، وليالى السهر، وقدوم مجد المباغت أو المتوقع، طلتها الطفولية، ودهشتها الفياضة وصفائها الحميم. بسرعة كنا نتبادل الحديث عن أدق الشئون، تلميحات. هو يعرف وأنا أعرف. أطلعنى على علاقته بصبية من الجمالية وصفها بأنها مهرة، رأى منها ما لم يره من غيرها، خرج عن كل طور حتى أنها حملت منه مرتين، لكنها أجهضت خشية من أهلها، ولأن شرط الصلة: لا زواج لسبب بسيط أنها متزوجة بالفعل من أمين شرطة لا يعطيها حقها، ولأن صاحبى مصدود عن امرأته التى أنجب منها ثلاثة، حتى أصبحا كأخوين، قال متأسيا مرة

«مشكلة عندما تصبح الزوجة أما أو مثل الشقيقة..».

كنت ألمح إلى علاقاتى وصلاتى، وأحيانا أصحبهن إليه. يتطلع فيفهم ويلزم الصمت، عندما أخبرته أن الأمر فى هذه المرة مختلف، يعرفها ولا يعرفها، ذلك أنه رأى كافة من اتصلت بهن. ومنهن مجد بالطبع التى جلست تراقبه أثناء عمله، لكنه عجز عن تذكرها قال ضاحكا:

«سأتذكر من أو من..».

«من يسمعك يتصور أننى دون جوان..».

«يا سيدى.. ربنا يحبب فيك خلقه...».

تساءل .

«صفها لى . . » .

من خلال كلماتى المصحوبة بإشارات شتى يحدد الهدية المناسبة ، رحت أصف له مجد ، الأولى البعيدة والتى أتجنب اللقاء بها منذ أمد حفاظا على ملامح عرفتها يوما بعد أن أخبرنى صديق مشترك أنها أصبحت طاعنة فى السن ، تبدو وكأنها جدة عجوز ، مجد الثانية ليست إلا صدى من أصدائها ، صورة لها ، وكما ذكرت فإننى وقفت خلال هذا التدوين على انتمائهما كلاهما إلى مصدرى الأقصى الحمراء التى أخشى الاستفسار عنها من أقاربى ، أو عند نزولى البلدة ، أوثر الإبقاء عليها فى حيز يقع بين الزمان والمكان ، بين المؤكد ، واللايقين !

«الخرطوش مناسب لها . . هل يمكنك أن تكتب لى اسمها بالعربية» .

كتبت بعناية «مجد» ، يحفظ الحروف الهيلوغريفية المقدسة ، منها سيجد المقابل ، طلبت علبة من القطيفة الحمراء الياقوتية ، لونى المفضل ، أضعها فى جيبى ، لحظة دخولى ، بعد المصافحة أخرجها ، أفتحها ، اشرح لها ماذا يعنى هذا الاسم ، وإذا سمح الحال أفك القفل وأحيط عنقها بالسلسلة المتقنة .

«أدخل» .

دفعت الباب على مهل ، برفق ، حتى لا يكون ظهورها مرة واحدة

فيذهلني، أو يأخذني فيتلجلج أمرى، تسند سماعة الهاتف إلى أذنها بكتفها، تتطلع إليّ، ثم تحيد فكأنني غير ماثل، لم تدعني للجلوس، لم تشر بيدها إلى المقعد، حرت فلم أعرف إن كان مناسبا جلوسى أم البقاء واقفا، لم تبد أى انفعال، لم أشأ الجلوس حتى لا أبدو مبالغا فى أى شىء؟ لا أدرى. لكن كلما مضت علىّ ثانية تضاءل أمرى وازداد انحنائى وقصر قامتى، وهذا ما لم أعرف له مثيلا من قبل.

فرغت. تطلعت بملامح مجمدة إلىّ.

«نعم..».

افتعلت الابتسام.

«هل يمكن الجلوس؟».

«طبعا..».

قلت إننى وصلت فى ساعة متأخرة، لكننى حرصت على الاتصال صباح اليوم حتى أراها أول أيامى هنا، طبعا.. قصدت أمرين، التذكير بأننى قادم من بعيد، آت من بلد آخر، خمس ساعات من الطيران ومثلها فى الإياب، كأننى أذكر المقيم بحق الغريب، أستعيد اتفاقنا على الموعد، الثالثة بعد الظهر، تراجعت بالمقعد المتحرك الذى يتبع حركتها. قالت بضيق، باشمئزاز سرعان ما تحول إلى نفور بل إلى احتقار سافر.

«ما هذا؟».

تطلعت إليها وجلاً، حائراً، لا أجد منفذاً ألوذ به أو أبدى عنده

الحجة ، تضاءلت فى مثولى حتى غاصت دماغى بين كتفى ، حشرتنى فى موقف المذنب منذ اللحظة الأولى ، بدءا من نطقها ، هذا التعالى والاستنكار ، من ناحيتى لزمت الحرص اتقاء لفضيحة تلحق بى ، كيف أبرر ، كيف أواصل العمل معها ، كيف يمكننى الشرح؟ قسوتها لم أعرف مثيلا لها من قبل .

قلت معان متناثرة عن نفاذ حضورها إلىّ ، عن أثرها المتنامى ، عن صلات البعد ، غير أنها قاطعتنى مستنكرة ، كيف يحدث هذا كله من خلال لقاء عابر لم نتبادل فيه إلا القليل من الكلمات؟ كدت أحدثها عن النظرة الأولى ، والإلمام بالمحبوب عبر لمحة ، نظرة تكفى ، بل كدت أستدعى سيرة مجد وسعاد ونادية والقصية النائية ، غير أن ملامحها القاسية ، المزدرية جعلتنى أكف وأحض النفس على الاحتمال .

رشحة الحميرا

لم يقع عندى أى حد من التداعى أو الربط عندما أصغيت إليها .

«حُميرا تتكلم . . »

فارسية تتحدث العربية ، سمعى لا يخطىء، لكننى لا أعرف شيئا عنها ، المرة الأولى التى أصغى إليها ، لابد أنها من اللواتى عبرن بى أو مررت بهن أثناء مشولى فى معرض طهران. وزعت العديد من بطاقاتى على من حاورنى أو قصدنى بالسؤال. قالت إنها فى القاهرة لحضور مؤتمر لمدة أيام ثلاثة ، ثم تبقى أسبوعا للزيارة والفرجة . سألتها عن مكان إقامتها ، ذكرت اسم فندق فى الزمالك ، متوسط ، يقصده الأجانب الذين يتجنبون الفنادق الكبرى ، أوروبى المدخل والأثاث ، قصدته من قبل لزيارة سيدة من البحرين جاءت للعلاج النفسى ، قالت إنها تصحب ابنها وصديقتها .

ربما أتذكرها عندما تلج مجال بصرى ، لكنها عندما طرقت الباب فى الحادية عشرة من اليوم المتفق عليه ، تطلعت موقنا أننى لم أرها قط ، لا أعرف ملامحها ، قسماتها لا تحيل على لحظة معينة . أبديت الترحيب وكأننى أعرفها جيدا حتى لا أسبب لها حرجا أمام ابنها وصاحبتها .

«نشأت ابنى . . شيرين صاحبتى . . »

يستمر تطلعها إلىّ، أستفسر عما يفضلون شربه، خلال طقوس الاستقبال أتلقى وأتمعن، ليست ممتلئة، ليست نحيلة، هيفاء القامة، سارية إلى أعلى وجهها ملتقى حضارات، ومحط قوافل ساعية من أزمنة إلى أخرى، دقيقة التمكين، منطوية على كثير، لحيظة تبدو غربية وأخرى شرقية وثالثة لا يمكن تحديد الجهة التى نبعت منها تلك الطلة، بدت لى جامعة . . يرتدى ابنها سروالا أطول مما يوصف بأنه قصير، وأقصر مما يمكن القول إنه طويل، ينبئ صوته بمفارقة الصبى إلى المراهقة، استعدت مرورى بتلك الحقبة، بدء خشونة صوتى مع بلوغى اللذة الغامضة، المستجدة علىّ. المتفجرة، السلسالة منى، أستيقظ على بلل مغاير، أكثر لزوجة، رائحته لم أعرف مثيلا لها من قبل، مصدره عين الفتحة المدرة لبولى، حتى أتقنت استجلاب مائى بذاتى. تعمدى الوقوف فى الحارة والنداء، شاهرا على الملأ ما لحق بصوتى من تغير أدركه، غير أن هذا الفتى بدا خجولا، حريصا على التوارى، قليل اللفظ مثل أمه، يحيد بنظره بعيدا عند حديثى وتوجهى إليه .

بعد أول لقاء دارت حيرتى حول اللحظة التى التقيت خلالها بالحميرا، كيف لا أتذكرها؟ ثمة أمر يقربها منى ويدفعنى صوبها لكننى ملزم بالتأنى، بعد أنتهاء الأيام الثلاثة للمؤتمر بدأت سياحتها، لا تعرف أى آخر فى مصر التى تنزلها لأول مرة، بشكل ما أدركتنى مسئولية غامضة، بدأ عندى عنصر خفى أجهله فى ذلك

الوقت كنت مشغولا بعمل كثيف يستغرق وقتى صباحا ومساء. اقترحت عليهم أماكن معروفة وأخرى غير مطروقة، وعدتهم بالصحبة لكننى لم أعرف متى أو كيف؟

فى اليوم التالى اتصلت صباحا، أصغيت إلى صوت حميرا الآتى من حقبة مغايرة، التطلع، الشاكى، المتسائل، الناضح بالرغبة فى اللواذ، ليس غريبا عنى، لكنى متى وكيف؟ لا أعرف!

استفسرت عن المكان الذى سيقصدونه اليوم، كنت أرغب فى إبداء الاهتمام بدون التزام محدد إلى جانب انعدام رغبتى فى الشروع، فى اليوم التالى عندما أخبرتنى بنيتهم فى السفر إلى الأقصر لمدة ثلاثة أيام، عندئذ بدأت أصف الفندق الذى اعتدت الإقامة فيه. يقع على بعد أمتار من وادى الملكات، ودير المدينة ومعبد هابو، يقوم فوق الأرض التى امتد عليها معبد امنحتب الثالث فى الزمن السحيق، لم يتبق منه إلا التمثالين الشهيرين، يمكن رؤيتهما من إحدى غرفه وشرفته العلوية، بيت تقليدى يماثل البيت الذى وُلدت فيه. حفظه صاحبه وأعده للإقامة المريحة، ولهذا الفندق حديث يطول فى تدوينى عن الأمكنة، وصفت لهم كيف يقطعون المراحل إليه. اتصلت بصاحبه لأوصيه بهم خيراً فأكد لى أنهم فى عينيه.

عندما أيقنت بسفرهم أدركتنى راحة. لن أشغل بمتابعة أخبارهم اليومية، أو الرد على اتصال الحُميرا اليومى ليلا، تخبرنى بما قامت به وما تنويه غدا. مرة واحدة اتصلت لأطمئن. قالت إن الاقامة جيدة والطعام فريد، الجو حار جدا. أغسطس أشد شهور السنة قيظا لكن

ما يرونه من روائع يخفف ويقوى الاحتمال. كررت شكرى مرتين، بعد انتهاء اتصالى أدركنى توق غامض لكننى لم أقدر على تصنيفه أو إيجاد مرتكز له. وإن أيقنت بحوم شيء عندى حولها، ورغبتى الطواف بها.

فور عودتهم من الأقصر قصدوا مكتبى. قدمت لى الحميرا رغيفين من العيش الشمسى، يعرف صاحب الفندق حبى له وتذوقى لارتباطه بسنينى الأولى فى الصعيد، أبديت سرورا. قطعت كسرة مضغتها على الفور. ابتسامة خفيفة دلت على دهشة ابنها.

صباح اليوم التالى التقينا أمام مسجد ومدرسة السلطان حسن. خلال السنوات الثلاث الأخرى أبدأ استعادتى لأيامى القاهرية منه، أقضى فيه وقتا، أما فى الصباح الباكر أو بعد العصر، وقت الأصيل، أعرف الحنايا وتفاصيل الزخارف وحركة الضوء والظلال وأصداء الطيور التى تأوى إلى الجدران الشاهقة، طيور الصيف غير طيور الشتاء، لم يعد أحد ينتبه إلى وفادتها فى خضم زحام المدينة وتضخمها.

أقول لمن أصحبه: ليس مهما رؤية الشيء، المهم.. كيف نراه، هذا ما يتعلق أيضا بذلك المبنى الشاهق الذى ألج عالمه الخاص مع الخطوة الأولى عبر مدخله الأشم، عند توقفى فى بهو المدخل ثم سلوكى الوصلة ما بين الخارج والداخل حيث يتم التهيؤ للوصول إلى الصحن المكشوف، إذ يتصل الجماد بالروح، الأرض بالكون البادى، وصولا إلى محراب الإيوان الرئيسى، ثم العتبة، المركز والضريح

تدرج لابد منه عبر المراحل للوصول إلى الخطوة التي لا تليها أخرى وتؤدى أيضا إلى كل شيء. قدس الأقداس في المعبد المصرى القديم، المذبح في الكنيسة، المحراب في المسجد، وقبل هذا كله الباب الوهمى في منزل الأبدية، المقبرة، عبرنا إلى مسجد الرفاعي، قلت أننى سأشهدهم مفاجأة، بعد لفت النظر إلى طراز العمارة المغاير، عثماني المرجعية، وإلى جمال الألوان، خاصة لقاء اللون الطبيعي للحجر بالأزرق النيلي والأحمر الوقور، دخلت إلى مراقد الملوك الباردة، التي لا يتوقف أمامها أحد، عبرت مقبرة الملك فاروق، والأخرى التي يرقد فيها والده، دخلت مباشرة إلى مكمن المفاجأة، في هذه الزاوية يرتفع العلم الشاهنشاهي فوق مقبرة منخفضة من رخام أخضر تداخله عروق حمراء، دائما أتساءل، هل توقع ملك الملوك في أوج عظمته وقوته أنه سيرقد إلى الأبد في قطعة من الأرض لم يطأها قط، ولم تخطر له على بال؟

في لحظة معينة التقى بصرى بعيني الحُميرا، لا أدرى بالضبط أى تشخيص يمكنني إحالة نظرتها إليه، إنها قليلة اللفظ، صامتة بطبعها. في هذه اللحظة بدت أشد إيغالا في سكونها.

هل أخطأت؟

هل كان السؤال واجبًا عما إذا كان لديها الرغبة في زيارة قبر الشاه أم لا؟ ربما أسبب لها حرجًا، لم أعرف مشاعرها بدقة لصمتها وحيادية ملامحها، وإن خيل إلىّ أن ثمة تأثرًا ما. إنها من الجيل الذى تكون في ظلال الثورة، في مناخها، لا أعرف شيئا عن موقفها، عن

انتمائها، الحقيقة أننى لا أعرف شيئا عنها، لا أذكر اللحظة التى التقينا فيها، ولا تلك التى مددت فيها يدى بالبطاقة التى تحمل اسمى وعنوانى وأرقام هواتفى.

داخلنى ذلك الإحساس بالذنب، وعندما بدأنا المشى فى شارع سوق السلاح المؤدى إلى باب زويلة، خط سيرى المعتاد، عندما أقصد المجاملة أضرب موعدا لا يتناقض مع عاداتى، يتفق مع ما حددته لنفسى من برنامج أسبوعى، هكذا مضيت نازلا فى الطريق القديم، أشير إلى السبيل الذى بنته رقية دودو، إلى بلاطاته الخزفية تركية الأصل فارسية اللون، إلى كون الألوان فى صحن مسجد سيدى أحمد أبو حريبة، عند وقوفى فى مواجهة الزخارف النباتية المحيطة بالمحراب، عند ارتفاع أصابعى إلى الجدار شارحا وجهة نظرى، التقى بصرى بنظرتها

ياه.. كيف لم أنتبه؟

طلتها تلك المصحوبة بانفراجة يسيرة بين شفتيها نبهت سائر كوامنى، هل تغير نبر صوتى عند انتباهى إلى بثها؟ لا أدرى..

فى العاشرة ليلا اتصلت بى ردا على مهاتفتى لها سبع مرات، طلبت منها أن تزورنى غدا بمفردها. كنت متعجبا من أمرى، كيف لم أنتبه؟ كيف لم أدرك منذ اللحظة الأولى، ليس هذا بالجديد عندى، يمكننى تقبل ذلك مع رحابة الوقت وإتاحة الفرصة. لكن الزمن الآن محدود، ضاغط، يدفعنى ذلك إلى التصريح فى غير الأوان، إلى الحرج والمزلقة. كما حدث مع تلك البنية التى صدتنى،

بل أهانتني وقست عليّ، لم تحاول حتى أن تستطلع أو تفهم، لم يكن في وسعي إلا الكتمان خشية الفضيحة في مجال يمس عملي، خجل يدركني كلما استعدت اندفاعتي إلى جهة غير متأهبة. مضى بي وقت غير قصير أحاول إزاحتها بعيدا عني، لم يكن ما جرى هينا عليّ.

قبل إقلاعها بساعات جاءت، مفردة، قعدت في مواجهتي أو جلست أمامها، نتبادل النظر، متطلعة من المشارق والمغارب معا. أفصحت عن صوت لا يمكن تصنيفه على أنه أنّة أو آهة، قابلته، جاويته بالتفهم والإصغاء، صرت إليها وصارت إليّ بالتطلع، حال جديد عليّ، لا يمكنني مقارنته بلحظة سابقة، هكذا خُيل أو شبه لي في آنية اجتماعنا. لكن . . كم من أمور أدرك معناها بعد فواتها، اتضح لي ما خفي عليّ وقت مثولها.

عندما تأهبت فارقت المقعد، وقفنا وسط الحجرة، قوس مشدود وسهم متأهب، لكن لادفع ولا إطلاق، أظهرت الامتثال، أولجت صمتها في صمتي، ما إن وصلنا إلى المصعد حتى قالت بهدوء.

«أنت مشغول جدا . . ».

قلت كالأبله.

«لكننا سنلتقي . . ».

متى وأين؟ كيف؟

لأول مرة أنفذ إلى الحمراء مباشرة بدون وسيط، أهى صدفة أن اسمها الحُميرا، لا . . إنها هى، تلازمنى منذ بداية سعيى . مضاف إليها ومورق منها سائر تحولاتها وما بدت عليه . كيف لم يتم إدراكى إلا بعد ذهابها، بقدر اقترابها كان ابتعادها، بذهابها القسرى لم ترحل إنما أفتقد الإمكانية، ويتضاءل الاحتمال . ذاك حسبى !

(رشحات عابرة)

ثانيا

عبثا أحاول

أحدق فيما لا أقدر على تعيينه، فى المتبقى عندى، لا أعرف مستقره أو مقامه، أو الشروط التى تدفع بعض التفاصيل إلى التوارى أو الظهور، عبثا أجتهد لاستحضار ملامح يفصلنى عنها أكثر من أربعين عاما. لا يمكننى تحديد اليوم أو الشهر، أما السنة فأخمنها.

يرتبط بها لون وسط بين الأزرق الفاتح والأخضر، رغم رؤيتى لها مرات، لكننى لا أطالعها إلا مرتدية هذا الثوب المكون من قطعتين. منه يبرز عنقها مكتملا مؤديا إلى وجهها المتناسق، إلى شعرها القصير، أطوف ثم أمتثل أمام مركز عينيها السوداوين، العميقتين، الأموميتين، الحانيتين، المتطلعتين، الحاضنتين، الطيبتين، تنظر إلىّ من أسفل، إذن. كانت أقصر منى بقدر. ليس إلى حد كبير، فلم تكن قصيرة، إنما هى وسط بالتأكيد، أفوقها طولا.

متى رأيتها أول مرة؟

لا يمكننى الجواب، لكنها بالتأكيد كانت بصحبة محمد عودة، أحد شيوخى الأوائل الذين اهتديت وتمثلت بهم وتركوا عندى معنى

وفتحوا لى آفاقا شتى جاءت بصحبته إلى مقهى الفيشاوى المكتمل وقتئذ، علمت أنها زوجة المستشار الثقافى البلغارى، هى بلغارية إذن، تلك بداية اهتمامى بهذا البلد الذى زرته ثلاث مرات فيما بعد ربما بتأثير تلك اللحظات التى أمضيتها معها.

مثل كل من عرفناهم، إن عرضا أو عبر إقامة وقربى، طالت أو قصرت، لا أذكر تفاصيل محاوراتنا، إنما جوهر بعضها، عندما تطل عليّ منى استدعى رغبتها فى زيارة بيت أسرتى وترددى أول الأمر.

كنا نسكن شقة صغيرة، ضيقة، من حجرتين وصالة، لم يكن لدينا غرفة لاستقبال الضيوف، فقط سرير بجواره مقعد ومنضدة خشبية أسند إليها كتبى وأوراقى.

ظهيرة ما جاءت، عند دخولها عانقت أمى، تلك لحظة مواجهة كل منهما للأخرى، ترحيب أمى وتعبير ما فى عينيها، اعتذار خفى عن ظروف صعبة، ودهشة، ربما لأن ابنها الأكبر يجيء بصحبة سيدة شابة، جميلة وأجنبية، تتحدث العربية بصعوبة، لكنها والله «طيبة».

عندما ترى أمى وجها جميلا عابرا، أو عرض لها، تردد جملة سمعتها أكثر من مرة «والله فى الدنيا جمالات..».

قالتها ذلك اليوم بعد عودتى، قالت إنها تبدو طيبة، وأنها تحب من يبدو طبيعيا ولا يتكلف، وأنها حاشتها عن غسل أكواب الليمون بالعافية، نساء الحارة كلهن تطلعن من النوافذ والشرفات عند انصرافنا.

«صحيح..».

لم تأت بعد ذلك، لماذا؟

أيضا، لا يمكنني التحديد.

ربما لاعتقالي بعد فترة قصيرة، وعند خروجي استفسرت من العم عودة عنها فلم أجدها، قال إن مدة زوجها في مصر انتهت وأنهما عادا إلى صوفيا، سينتظران بعض الوقت قبل رحيلهما إلى بلد آخر. منذ ذلك الحين بدأت أستعيدها من حين إلى آخر، لحظات عديدة، تلاشى معظمها عدا اثنتين، الأولى تلك التي ذكرتها. والثانية متصلة بالرقص.

في بيتها بالزمالك، أرى كل التفاصيل، لون الستائر، درجة الضوء، البيانو الأسود ألماني الصنع، الثريا ذات الأفرع المتعددة على هيئة أغصان لكنها معدنية، ينتهي كل منها بمصباح مستطيل يستوحي ثمرة الكمثرى.

مناسبة ما، ربما عيد ميلادها، ربما احتفال بذكرى ما تتصل بتاريخ بلادها. ربما دعوة لا صلة لها بهذا أو ذاك، المهم أنها تبدو لي باسمة، نشطة، تظهر اهتماما بضيوفها. ولقلة خبرتي لم أتأكد من ملاحظة عم محمد عودة فيما بعد، إنها خصتني بقدر، ربما لملاحظتها ارتباكي، حتى ذلك الوقت لم أكن أعرف كيف أتعامل مع أنثى، خاصة إذا خلوت بها، ولذلك تعاظم حرجي عندما دعتني إلى الرقص.

بعد أن عزفت مقطوعة قالت إنها لبرامز. أدارت أسطوانة، وتقدمة مباشرة أمسكت يدي فأتصلت كينونتي بوجودها، لمسة ما تزال سارية عندي، مرسلة بلا توقف، تبعتها منقادا، مأمورا، لكنني هياب فلم يسبق لي المراقصة قط.

تطلع عم عودة صوبي حانيا، مشجعا منبها أيضا إلى أن ترددى لا يليق، لكننى قلت لها.

«لا أعرف الرقص..».

قالت مشجعة:

«هذا لطيف.. لطيف جدا..».

ثم قالت:

«حاول معي..».

وضعت يدى حول خصرها فغمرتني نداوته وهشاشته، لم أتصور حتى هذه اللحيظة أن الوجود المادى للمخلوق يمكن أن يرق حتى هذه الدرجة، من تلك اللمسة، من هذا الخصر الذى تلاشى الآن انبعثت درجة القياس عندى فيما تلى ذلك، فهذا أغلظ وذاك أرق، أقوى ماتبقى منها ومثل عندى، لاحظت ارتباكي، قالت:

«ستكون راقصا جيدا..».

فى لحظة ما، بمقهى يطل على البحر السكندرى بعد أعوام أيضا لاأدرى مقدارها، قطع عم عودة الصمت، قال:

«هل تذكر تانيا البلغارية؟».

قلت على الفور:

«طبعا..».

وعندما لاحظت سرحة عينيه، تساءلت:

«مالها؟».

جانكـــا

جانكا بتكوفا . .

لا أدرى موضع سعيها الآن بعد مضى أربعة عشر عامًا على لقائنا الثالث والأخير ، هل ما تزال تشغل حيزاً يمكن تعيينه فى عالمنا هذا أم اندمجت بالكون الفسيح ، اللانهائى ، أى . . مضت إلى هناك!

لا أعرف ، لا أحتفظ بأى إشارة تدل عليها ، الدفتر الذى يحوى عنوانها فقدته منذ أمد ، بل إن فترات طويلة مضت لم يرد حتى اسمها علىّ ، ولا أى عنصر يمت إلى ملامحها النائية ، غير أننى إذ أمعن وأدقق فيما لا يمثل أمامى أكاد أقف على ما لم أتبينه من تانيا ، الملامح البادية ، ما يربط كل منهما بالأخرى وثيق ، فلا استدعى تانيا إلا وتتبعها جانكا ، كذلك العكس ، ليس لأن كلا منهما تنتمى إلى نفس البلدة ، بل إلى العاصمة صوفيا ، ولكن لأن تانيا هى المؤدية إلى جانكا ، ولأننى ألممت بما آلت إليه تانيا من جانكا ، كلاهما ملازمة للأخرى عندى ، غير أن ما قربنى ، ودفع بى إلى وصل أمرى معها كان رائحتها ، لا أعنى العطر الذى تستخدمه ، إنما نسيم حضورها ، لكل إنسان مفرد عبير خاص به ، يصعب تكراره ، تماما مثل البصمة ، عندما التقيتها أول مرة ، وعندما صافحتها ، ولم يحتو فراغ مكتبى

الصغير المتواضع حضورها، فاض وعبر، تنسمت على الفور تانيا، لم يكن ذلك مطابقا بالضبط، لكنه قريب، يوحي بها، يستدعي الغائبة، أو هكذا شُبه لي. ربما المرة الأولى التي أعرف فيها أمراً كهذا، إذ اعتدت استدعاء ملمح من هذا أو تلك عبر قسمات الوجه أو لون العينين أو طريقة النطق أو انفراجة شفتيه أو لمعة عينين وتألق نظرة، أو خطو ما. فما أدركته وخبرته أيضا أن لكل مفرد أسلوب في المشي، في التقدم إلى الأمام أو التراجع إلى الوراء، وهذه النقطة تحديدا دقيقة، مما يطول الحديث فيه ويحيد بنا عن القصد.

عند استعادتي لحظة لقائي الأول بجانكا، أفهم تلك العبارة التي ترددت على مسمعي كثيرا، عندما يقول أحدهم أنه أحب فلانا لأنه من رائحة فلان، يقصد قربه منه، لكنني بعد اللقاء الأول أدركت أن التعبير ليس مجازيا، ليس تجريدا بل أساسه مادي، ثمة رائحة تستدعي أخرى.

كان ممكنا أن ينتهي لقائي بجانكا بيتكوفا عند هذه اللحظات، جاءت إلى القاهرة لأول مرة مزودة برسالة من تانيا، الحق أنها ليست مكتوبة، بل شفهية زودتها باسمي، واسم صاحبي محمد عودة، وعرفت جانكا طريقها إليّ، كان ممكنًا أن أكتفي بترحيب متحفظ. فما أكثر المترددات. العابرات القاصدات إجابة على تساؤل ما، أو مبديات الرغبة في التقصي والبحث عن شأن، لكن ما أندر اللواتي يحركن عندي أمراً، شيء لا أقدر على توصيفه أو الجهر به، لكنني أكتفي بالتلميح، لعل وعسى.

لم تثر جانكا رغبتى الحسية كما يحدث عند اللحظة الأولى مع أخريات، مررن بى أو مررت بهن، بعضهن بادلته الحديث ولهب تتفاوت حدته يتقد داخلى، يأز عندى، وبعضهن لمحتهن من بعيد، ولعلى أكون فسرت فى تدوينى المرسوم بخلسات الكرى، حتى وإن اختلفت القصة.

دعوتها إلى القاهرة القديمة، إلى المكان عينه الذى صحبت فيه تانيا مع اختلاف الظرف. إذ انتقلت من الحارة إلى حلوان الضاحية الجنوبية، أما الوالدة فرحلت، والشقة الصغيرة يسكنها آخر، لكن ما لم أفتقده ترحالى الدائم عبر المكان، وصلاتى بمن تبقوا هناك، بل إن دعوتى للبعض تكون حضًا لى على التردد والجلوس فى المكان، أى زمنى الخاص أيضا، لكن المؤكد أن اقتراحى لم يكن دافعه ذلك. إنما صحبة جانكا، إيجاد خصوصية لوقت محدد نمضيه معا، فى الجزء المتبقى من مقهى الفيشاوى التقينا.

هى أطول، ممشوقة، قصيرة الشعر، لكن عبيرها زادنى يقينا بحضور تانيا، خاصة فى هذا الفراغ العبق بالنعناع، والشواء، وتقلية البصل، وما يتخلف عن طشة الطعمية، وتقلب الباذنجان فى الزيت المقلى، واستحضار العطور، طغى ما ينبعث من جانكا على ما عداه، لا ترتبط الرائحة بالجسد، وتشبع الملابس بها وتسرب بعضا منها إلى جهات شتى، إنما ترتبط بالحضور، بالتكوين ودرجة القربى فى جلستها الأولى بالمقهى أمام المرآة البيضاوية، المؤطرة بزخرفة جصية عتيقة، يمكننى رؤية ظهرها ولون بشرتها وحدود انسدال شعرها حتى

حافة العنق، في هذه الجلسة أخبرتني بمرض تانيا الخطير، بعد عودتها من الهند شكت أعراضا وبعد الفحص ثبت أنه هو، تعالج الآن بالكيماوي وثمة أمل. أبديت أسفا، ولاح حزني ولعلها المرة الأخيرة التي استحضرت فيها تانيا بقوة، وقفتها، جلستها قرب أمي، دعوتها للرقص، ملامستي لخصرها الهش الذي يستحيل لمسه وقت تدويني هذا، لأنه تذرى، عاد سيرته الأولى، هذا ما أطلعتني عليه جانكا عبر رسالة تلقيتها بعد لقائي بعامين.

عندما التقيت جانكا للمرة الثانية كانت فى زيارة رسمية، اتصل بى مسئول العلاقات الثقافية بوزارة الخارجية، قال إنها طلبت تحديد موعد معى وقضاء يوم كامل يصحبتى فى القاهرة القديمة فهل يسمح وقتى بذلك؟

أبديت الترحيب، فى الموعد المحدد بعد أسبوعين جاءت بصحبة موظف من المراسم انصرف بعد لحظات، وبعد أن حددت له موعد عودتها إلى الفندق، بقدر ما بدت متحفظة فى البداية، كلماتها محسوبة، كذلك إيماءاتها، بقدر ما لاح لى تهيؤها، بدت متسقة، توحى ملامحها بشيء ما لم أستطع تحديده بدقة، لكن المؤكد أن رائحةتانيا غالبة، لكننا لم نذكرها قط، لم نتحدث عن موضعها ورحيلها، وكنت تواقًا إلى الإستفسار عما إذا كانت ذكرتنى، أو جرى اسم على لسانها، كثيرا ما يخطر لى ذلك إذا تعلق الأمر بمن عرفتهن لفترات قصيرة أو خلال لقاءات عابرة، أو عند التقاطعات الصامتة التى لا يجرى فيها أى حوار، مثل الطرق، والنواصى،

والمقاهي، والمحطات، والمطارات، تعلق بذاكرتي ملامح عابرة، لم أطالعها بالبصر الحسير إلا لثوان أو لحيظات، أتساءل، هل علقت ملامحي بهن كما جرى الأمر عندي؟ أحيانا أتساءل عمن سيتردد عليه بعض من ظلالي أثر غيابي الأبدي وذهابي إلى هناك، من آخر الذاكرين لي بالاستدعاء بالنطق أو الصورة؟ أول ما خطر لي مثل هذا الاستفسار غير المنطوق، غير المفصح عنه. كان أثر غياب الوالد ـ رحمه ـ الله، ثم شملني الأمر، بعد غياب الذكر يتم التلاشي.

صحبتها إلى الأماكن الأثيرة، المقهى، القبة وارفة الظلال، المسجد أزرق السقف، إلى البيت عثماني الطراز، إلى أزقة يندر دخول أجنبي إليها، جلسنا بمقهاه صغيرة غير مطروقة إلا من أبناء الحي، في الأماكن الضيقة أقترب إليّ الحد الممكن محاولا تنسمها، إيجاد الشبه برائحة أول من دعتني إلى الرقص، ولمست يدي خصرها، ما تزال هشاشة تسري عندي، كان حضورها المستحيل قويا، من خلال مثول جانكا. قالت إنها قرأت رواية لي باللغة الروسية، كدت أقول إن تانيا كانت تتقن الروسية وأن حواراً جرى بيننا يوما أبديت حسدي عبره لأنها تقرأ تشيخوف بلغته الأصلية، فقالت إن الروسية تدرس منذ المراحل الأولى، تماما مثل البلغارية، قلت إن الحروف متشابهة، قالت تانيا يوما إن البلغار أقرب الشعوب السلافية إلى الروس ثقافيا وعرقيا، قالت جانكا إنها عرفتني أكثر، قلت لها إن هذا ما أذكره لصحبي دائما، فمن أراد أن يعرفني فليقرأني، أوجد فيما أكتب أكثر من وجودي ومثولي هذا، تطلعت جانكا راضية صوبي فأدركتني نسائم القربى، غير أن الوقت محكوم، مؤطر، وغدا ستقلع عائدة إلى

بلادها ، ولا أدرى متى يلتقى الحى بالحى ، لكننى قابلتها بعد شهور صدفة ، ولم أتوقع ذلك .

حتى وصولى إلى بلاد المغرب لم تخطر لى جانكا قط ، كذلك تانيا التى راحت تتراجع ، كأنها تقف عند نقطة ما ، بينما قطار خفى يأخذنى ويوغل مبتعداً بى ، هكذا تنأى ملامحها ، فيما عدا العالق بالذاكرة ، وكان أقوى ما عندى عطرها إذا وجد ما يثيره ، ولم يحدث ذلك إلا قرب جانكا التى أصبحت ملمّا بتفاصيل شتى عنها ، رغم فترات صمتها إلا أنها تتدفق فجأة ، تذكر أموراً دقيقة ثم تتوقف فجأة ، تكف .

منها عرفت إنها زوجة لكاتب مسرحى معروف وأنه درس مثلها العربية لكنه لم يعمل بالاستشراق ، وأنهما منفصلان منذ سنوات ، كل منهما يعيش بمفرده ، على مقربة من بعضهما ، لا يفصلهما الا شارعان ، أحدهما مخصص للمشاة ، من شوارع صوفيا القديمة ، تسكن شقة صغيرة من حجرتين ، إحداهما مكتب ومكتبة والأخرى للنوم تعمل ساعات طويلة بعد عودتها إلى البيت ، تترجم مقالات وتقارير سياسية من وإلى العربية ، كما أنها ترافق الضيوف الكبار من رؤساء الدول وتقوم بالترجمة الفورية لكنها تتوق إلى ترجمة نصوص أدبية . إذا ما تقاعدت مبكرا سوف تتفرغ لذلك ، أمها ما تزال تعيش فى الريف ، تراها مرة فى السنة ، تسافر كثيراً . خاصة إلى الأقطار العربية لكنها مهام رسمية ، ليست أجازات ، تتوق إلى رحلة من أجل الرحلة .

بعد ساعتين من استقرارى فى الفندق المطل على المحيط

الأطلسى، أحرص على إزاحة الستارة الثقيلة والخفيفة، بحيث إذا تمددت فوق السرير يمكننى رؤية الزرقة اللانهائية، إنه المحيط وفى تلك اللحظة رن الهاتف . .

«متى وصلت . ؟» .

زعقت .

«جانكا . . » .

«عرفتنى . . » .

قالت بهدوء

«لا . . سآتى إليك . . » .

وقفت وراء الباب مترقبًا، وعندما لامسته يدها، طرقته بخفة فتحت على الفور، لأغلقه وتستقر بين ذراعى، بقيت ساكنة، وفى هذه اللحظة بدأت سعيى إلى التأكد، استعادة الرائحة القديمة، شفتاها رقيقتان، احتويتهما، لكنها أفلتت، إلى المقعد المجاور للمكتب الصغير، جثوت مبديا كافة ما أقدر عليه من بث وتجسيد حال، تقبيل شعرها وأصابع يديها، وغرس أنفى فى سطح جسدها . لم تبد ممانعة عندما أوغلت بأنفى مقبلا، باحثًا، منقبًا، حتى إننى رأيت سروالها الأبيض الذى تتسرب من حافتيه شعيرات غامقة، لم تدفعنى، قامت إلى السرير، تبعتها، وتزايد لواذى بها، كنت أدس أنفى فى ثناياها، متشبثا بالرائحة المشعة، الدالة على وجود آخر لم يعد قائمًا .

«اهدأ . . اهدأ . . » .

لم تصدني جانكا، لكنها لم تقابلني بالمثل، ولم أكن أسعى إلى الإيغال والتوحد، بل ربما تمنيت أن تظل على حالها، ألا تمضي معي إلى ما هو أكثر، وهذا حال غريب بالنسبة لي، كنت راغبا في التشبث بهذا الأريج العتيق، التأكد من مصداقتيه، هل أدركت؟

هل فهمت بحسها الأنثوي؟

لا أدري، لست متيقنا، لكنها عندما أفلتت إلى الشرفة، انحنت تواجه المحيط، وتسربت النسمات إلى داخل الغرفة، لم أكمل سعيي، تمددت على الفراش، متطلعا إلى ظهرها المنحني، ومدها البصر إلى بعيد، جمد كل منا في حيزه، وهذا آخر ما بقي منها عندي.

آنيت

ظهورها يؤنسن المكان، يضفي عليه منها ويعيد صياغته، لا يمكنني تحديد لحظة معينة أو يوم محدد أشير إليه فأقول إنها ظهرت فيه وتمكنت حدقتاي منها عنده.

أستعيرها قادمة عبر الدرج من أعلى أو صاعدة، متقدمة دائما غير مدبرة، لم أستوعبها خلال مرات قدومي إلا على مهل. بثها هادئ يسري عبر مداخل مجهولة إلى النفس والذاكرة.

مشسقة، ليست بالطويلة أو القصيرة، لا تميل إلى امتلاء أو نحافة، بتكوينها تعد وسطا، رداؤها المفضل سترة من الجلد الأسود، وسروال جلدي لكنه رمادي، تمضي على أطراف أصابع قدميها، مشرعة النظرة، متجهة الصوب، يظن كل رائي أنه المعني، لو مضت عبر شوارع مدينتي حيث مستقري ومسعاي لما ظنها أحد أجنبية، قاهرية الملامح، نيلية البشرة، إيزيسية الطلة، خاصة الجانبي منها. لذلك تمتد عندي، فلا يمكنني القطع بلحظة تبدأ فيها أو التنبؤ بأخرى تنتهي عندها وتولي، فهي باقية رغم انقطاعي، وانقضاء مدة لم تدخل خلالها إلى إطار محسوساتي.

بدأ الأمر ولم يبدأ عندما دعاني صاحب حميم إلى الغداء في هذا

المطعم عتيق الطراز، زخارفه مشرقية المس، تنتمى إلى حركة الفن الجديد التى ذاعت فى مطلع القرن العشرين، لاحظت إزدحامه، ومألوفية مناخه، وحميمية فراغه، لم أرها هذه الظهيرة، بالتأكيد لم يقع عليها بعدى، يشق عليّ القول أننى لم ألحظها، ينال هذا منى عندى، بعد شهور جئت قاصدا الفندق القديم الذى لم أجد فيه غرفة خالية أول مرة. أعجبنى موقعه، تمسك عمارته بناصيتى طريق سان ميشيل الرئيسى، وشارع راسين الفرعى. تحته مكتبة جبير متعددة الطوابق التى اعتدت أن أقتنى منها مجلدات الفن التشكيلى وموسوعاته، خاصة الطبعات الصادرة فى السنوات الماضية، ما يعنينى اللوحات فى حد ذاتها، موقع الفندق يخفف عنى عبء التجوال بأحمال ثقيلة، أما عتاقة الحى وما يحويه من معارض للفن المعاصر ودور نشر ومقر الجامعة القديم فكادت تلك المسافة التى تفصلنى عن القاهرة القديمة أن تتلاشى، هناك المركز أيضا جامعة مرتبطة بالقداسة، الأزهر، لم تتجاوز مدد إقامتى الأسبوعين، لكننى اعتبرت المنطقة مقصدى، فيها تقع دار النشر التى تصدر كتبى، والمقاهى التى اعتدت أن أتأمل منها حركة العابرين. منذ أن رحل صحبى الذين اعتدت الاقامة عندهم، رجعوا إلى مصر، عرفت ذلك الفندق.

يحوى عشر غرف، صاحبته سيدة عجوز. لم أرها إلا مرة واحدة، تمتلك ثلاثة فنادق فى مناطق مختلفة كلها من نفس المستوى. نجمتان، غير أننى أقمت الصلات الوطيدة مع مديرته، فنزويلية الأصل، والموظفين الذين يتعاقبون على إدارته، ومنهم طالب مغربى

من تازة ، يجيء في العاشرة ليلا ويسهر حتى الصباح ، مرح ، يطلب مني أن أتحدث بالعامية المصرية ، شيئا فشيئا أصبح الفندق مقصدا لعدد من معارفي ، وأصدقاء ابني وابنتي . لرخص إيجاره ، وحسن موقعه ، وسهولة الألفة مع من يديرون أمره .

من صاحبي المغربي عرفت ما تمت إليه عن آنيت ومن يمت إليها ، المكان والبشر ، الفندق رقم ثلاثة ، لم أعرف قط المبنى رقم واحد ، يبدأ الشارع بالفندق ، إلى جواره باب أخضر دائما أراه مغلقا ، إلى أن أدركت علاقتها به يوما بالصدفة ، في ذلك العصر علمت أن آنيت تمت إلى المدخل ، وأن المبنى كله يتصل بها ، المطعم ذو الثلاثة طوابق ، عريض الواجهة ، والباب المؤدى إلى الطابق العلوي حيث تقيم . لا أستدعي نوافذه ، كذلك واجهته ، حتى الرصيف المحاذي له . إلا وتطالعني . رغم ذلك فلا أقدر على تحديد تلك اللحظة التي يمكنني القول عندها أنني رأيتها لأول مرة !

رغم أنني جئت إلى المطعم من قبل مدعواً . لكن صار المكان إليّ وصرت إليه بعد نزولي الفندق واتخاذه مستقراً ، سواء جئت لليلة عابرة أو مقيما لعدة أيام . إنه المبنى المجاور مباشرة ، مبنى عريض الواجهة ، نوافذه مستطيلة ، ملامح العمارة الباريسية متقاربة . ليس لأنها شيدت في وقت متقارب ، ولأنها جاءت ملبية احتياجات البيئة والمناخ . إنما لشروط حاكمة ما تزال سارية فمن أراد التجديد فليقدم . لكن في الداخل ، عليه الاحتفاظ بالواجهة حتى لا يقع التنافر بين المباني المتجاورة وبالتالي يختل إيقاع المدينة . أول ما اكتشفت ذلك في

مدينة بولونيا الإيطالية العتيقة، عندما فوجئت بالمفارقة الواقعة بين واجهة الفندق العتيقة. والطوابق الحديثة بالداخل، وصفت ذلك بدقة فى تدوينى «شطح المدينة».

فى الفندق مازال الداخل متسقا مع الخارج، ولعل ارتفاع فراغ الحجرات واتساعها من مصادر ألفتى. إذ عرفت فنادق أخرى يكاد السقف فيها أن يلامس الرأس، كذلك المبنى المجاور، حيث المطعم يشغل ما يوازى ثلاثة طوابق، يعلوه سكن بعرض مساحته كلها تقيم فيه آنيت وزوجها وابنها، أحطت بذلك على مراحل بعد إقامتى فى المكان. نومى فى الفندق، وجلوسى بالمطعم الذى يبدأ العمل فيه مبكرا فى العاشرة، يستقبل الزبائن كمقهى، أو طبقا للافتة المعلنة «صالون شاى»، تخلو المناضد من الأطباق والشوك والملاعق والسكاكين، قبل الثانية عشر، بحوالى عشر دقائق يبدأ العاملون فى إعداد أدوات الطعام، عند الثالثة يزيلونها، يصفون الأكواب فقط، وما بين السابعة والحادية عشرة يعد المكان كله للطعام، ما يضاف شمعة صغيرة داخل كأس صغيرة، عند جلوس البعض يتم إشعالها، وفى الحادية عشرة يعود المكان إلى تقديم المشروبات فقط، ينتهى العمل فى المطبخ، تتغير طبيعة المترددين. معظمهم يحتسى البيرة البلجيكية القوية التى يقدمها المكان باعتباره متخصصًا فى أنواعها.

كثيرا ما تناولت غذائى أو عشائى، وإذا لم أقدر فإننى أحرص على المغادرة قبل مواعيد الغذاء أو العشاء حتى لا أحتل موقعا لآخر جاء راغبا فى الطعام، لم أخلف عادتى تلك رغم أن طول مكوثى وكثرة

المترددين على، وتبادل المودة مع العاملين جعلهم يتسابقون للترحيب بي، والنطق بعبارات دقيقـة، خاصة عند ظهوري بعد انقطاع، وكثيرا ما أضع حقيبتي وأغادر الفندق على الفور إلى المطعم متوقعا رؤية آنيت، وجمـال الجزائري، وبيير الفرنسي، وجاك الكورسيكي، وغيرهم ممن أعرف ملامحهم وأجهل أسماءهم، ومنهم سيمون الذي مضى وقت غير قصير قبل أن أعرف بملكيته المكان وتوليه الإدارة، له شريكان آخران، يعيش أحدهما في مدينة انتويرب البلجيكية ويتاجر في ماس الكونغو، أما الثاني فيدير مؤسسة مالية مقرها العاصمة الهولندية أمستردام، منهما المال والمشاركة ونصيبهما من الأرباح، لفترة ظننته أحد العاملين، إذ كان يرتدي مريلة بيضاء باستمرار، '
يكف عن التحرك، يقوم بالخدمة في كل اتجاه، يختفي في الطابق السفلي حيث المطبخ، وحيث مصدر تلك الرائحة الخاصة، الغامضة التي ارتبطت عندي بفراغ المكان، واللون الأخضر العتيق الغالب على طلائه، والمرايا المرسوم عليها زهور وأغصان طبقا لتصورات الفن الجديد الذي به مس من زخرف شرقي، والأعمدة المكسوة بالمرايا، والبار العريض، الذي يبدو كمتحف لزجاجات مختلفة الأشكال والأحجام، أنواع لم أرها من المشروبات، ولكن الصدارة لأنواع البيرة البلجيكي والتي تتجاوز الاثنى عشر، رائحة مكنونة، سارية، سميكة حتى لأكاد أرى قوامها في الفراغ، نتاج دهون وتوابل وبهارات شرقية وتخليط عناصر، غير منفرة، بل إنها من عناصر التخصيص فلم أعرف مثيلا لها في أي مكان آخر، بعد أكثر من ثلاثة أعوام يمكنني القول إنني أحطت علما بما يتعلق بالمكان، لا يمكن القول

إن هذه المعلومة أطلعت عليها يوم كذا، ساعة كذا، إنما يشبه الأمر بما يعرفه الجار عن جيرانه دون التوجه إليهم مباشرة أو الاستفسار قصداً. إنما تتجمع الجزئيات من جملة هنا واستفسار هناك، حتى يصبح المتعايشون عن قرب ملمين بكل ما يمكن معرفته عن بعضهم البعض، دون أن يتبادلوا الحديث مباشرة، أو أى اتصال، هكذا عرفت أن أصل المكان يعود إلى القرن التاسع عشر، فى البداية كان مطعما عاما يتبع إدارة الجامعة القريبة، يقدم الحساء إلى الطلبة بسعر زهيد جداً، ربما ولج فراغه يوما الشيخ رفاعة الطهطاوى، أو بعض من أعضاء البعثة التعليمية المصرية الذين أوفدهم محمد على باشا، أو الذين تعاقبوا على الدراسة فى السوربون أو الكوليج دو فرانس، فى بداية القرن العشرين أغلق المكان لعدة سنوات حتى اشتراه روسى الأصل ممن هاجروا بعد الثورة البلشفية، كان مغرما بالفن الجديد، ولذلك أعد الزخارف والمرايا والمقاعد والمناضد وفقا لخطوط هذا الاتجاه الذى كان يهيم به، وهكذا اتخذ المكان مرجعية ظلت ملازمة له حتى الآن فعندما جاء سيمون وشريكيه فى بداية التسعينيات من القرن الماضى، كان من شروط البلدية الاحتفاظ بالطابع القديم للمكان، إذ إنه يكاد يكون الوحيد المزخرف المنسق طبقا للفن الجديد، هكذا تم توثيق العقد مقابل مبلغ ستة ملايين فرنك فرنسى وقتئذ وأعيد افتتاحه بعد الإصلاحات الملتزمة بالطابع، بعد أن ظل مغلقا منذ عام تسعة وثلاثين، أى السنة التى اندلعت فيها الحرب العالمية الثانية، سافر الثرى الروسى إلى الولايات المتحدة. غاب خبره، وظل المكان مغلقا لسنوات طويلة، لم أعن بالاستفسار عن وضعه القانونى، أو ما آل

إليه ، لكننى علمت أن اتفاق البيع جرى بين سيمون وشريكيه من ناحية والبلدية من ناحية أخرى . ولأنه المتفرغ لإدارة الشأن ، استقر بالطابق العلوى ، يؤدى إليه المدخل المجاور والذى يقع فيه المكان والفندق ، باب خشبى أخضر غامق ، موصد دائما ، أمامه لقيت آنيت ، كانت بصحبة ابنها ، فى الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة ، قدمته إلىّ ، بدت مختلفة عن المظهر الذى أراها به . كانت ترتدى معطفا أسود من الفرو المجعد ، مغلق حول عنقها ، مما أبرز وجهها وهدوء ملامحها ، بدت أعمق راحة ، واطمئنانا ، خارج إطار الذهاب والمجىء ، لابد أنه يوم عطلة لها ، أو عائدة من زيارة لا صلة لها بالعمل ، كتاب صغير عن المومياءات الملكية ، كنت أحمله لأقلب صفحاته عند جلوسى بمفردى فى ركنى المفضل الذى أواجه فيه البار المزدحم بالزجاجات والضاج بالخدمة ، قدمته مبتسما إلى الابن الذى لزم الصمت خجلا أو خشية .

«هذا لك . . » .

فى اليوم التالى صافحنى سيمون مرحبا ، قال إنه يشكرنى على إهدائى هذا الكتاب الجميل لابنه ، قلت إن هذا أمر بسيط ، وعندما آويت إلى ركنى استعدت ملامحه فخيل إلىّ أنه شاء إبلاغى رسالةمتضمنة فحواها بلوغه أمر اللقاء العابر بسيمون وما دار بيننا من حوار قصير!

من ناحيتى لم أبد أى علامة تنم عن خصوصية انتباه أو فرادة اهتمام ، مع انتظام ظهورى ومرات مكثى ، فى معظم الأحيان

بمفردى، أو أثناء لقاءاتى بصحبى أو ذوى العلاقة بعملى، توثقت صلتى بالعاملين، خاصة جمال جزائرى الأصل، سميى، أو إيف الفرنسى، أو خادم الرسول السنغالى. لكل منهم عندى منزلة. ولدىّ ما يمكن أن أرويه لكن عبر مجال آخر، إنما سعيى هنا إلى استحضار آنيت وتمثلها، ذلك أنها ذات نبع هادئ، لا ينقطع بمجرد غيابها أو خروجها عن دائرة البصر، وقد عرفت من يقاربنها فى قوة التأثير وعمق الفحص، لكنهن أجمعين لا يبلغن مقدار بثها، ومطواعية إرسالها عبر توالى الأوقات التى تمر كلها بسرعة.

حتى الآن لم أعرف موضعها بالضبط فى المكان إن كان لها مثل هذا المقر، تظهر فجأة فى القاعة الرئيسة قادمة من الغرف الخلفية حيث إعداد الطعام، ومر يصل إلى ركن مخصص للشطائر والأطباق السريعة وشرب البيرة البلجيكية التى اصطفت أنواعها فوق الأرفف، وهذا الركن لم يكن موجودا عندها أول مرة، تابعت ظهوره على مراحل خلال ثلاث مرات متقاربة نزلت فيها إلى باريس، كان سيمون يبدى الهمة، يبدو مرتديا لباس العمل الأبيض، لم أره قط ساكنا دائما يعمل، إما يقدم الأطباق إلى رواد هذا المحل، أو يمسك سكينا وفخذا محفوظا يسويه تمهيدا لتقطيعه إلى شرائح الجامبون، لهذه الحركة الدائمة ولقيامه بأعمال شتى، مثل صب البيرة من الزجاجات، أو من الصنابير الخمسة المتصل كل منها بخزان يحتوى نوعًا خاصًا علق رمزه أو علامته على الفوهة، قبل أن يخبرنى صاحبى الجزائرى بموقعه ظننته أحد العمال. وتصورت رجلا آخر هو المدير أو صاحب المكان، إذ كان قصيرا ممتلئا مهيب الحركة، يرتدى نظارة ذهبية

الإطار أشيب كثيف الحاجبين، ينظر رغم قصر قامته من عل إلى كل الموجودات، لكنه بالغ التهذيب عند مقابلة الزبائن، يسألهم عما إذا كان ثمة حجز، فإذا تلقى إجابة بالنفى. سارع يتقدمهم إلى الأماكن الخالية مشيرا إليها ليختاروا، عندما علمت أنه مضيف مثل الآخرين، تذكرت ما رواه توفيق الحكيم فى يومياته أثناء عمله نائبا بالأرياف، تلك السيدة العجوز التى وقفت تواجه المحكمة، وكان القاضى صغير الحجم، ضئيل البنية، أما وكيل النيابة فكان ضخما، مهيبًا، جهورى الصوت، اتجهت السيدة إليه عند حديثها، واضطر القاضى، رئيس المحكمة إلى تنبيهها أكثر من مرة: ياست أنا القاضى!

المكان مفتوح على الداخل، لا يطل على الخارج، أى الشارع الضيق إلا من خلال منضدتين فقط. ورغم حرصى على الجلوس إلى أحدهما فى البداية، إلا أن مكانى المفضل أصبح فى مواجهة البار العريض العامر، المدجج، والذى أكد لى سيمون أنه يعد من أقدم القطع فى باريس وأكثرها فرادة، وأن صيانته تكلف كثيرا لندرته واختفاء الشركة التى صممته وصاغت أجزاءه، أدركت أن العلاقة تبدأ وتتوطد من الداخل وإلى الداخل، بعكس مقاه أخرى عرفتها فى المدينة الأساس فى تكوينها أنها مفتوحة على الخارج، مثل مقهى «الرحيل» القريب من النهر، ومقهى ساحة السوربون، وأخرى عرفتها عابراً.

رغم محدودية الفراغ، إلا أن عناصره تضفى سعة، وحميمية ما، أما توقع ظهورها. ثم بدأه ذاته، فيحول المكان كله إلى رياض فسيحة، فكأن للزخارف المرسومة على المرايا العتيقة أريج، واللون

الأخضر الغالب له طراوة العشب، لا يلفت تناسق ملامحها وهدوء سماتها النظر للوهلة الأولى، لكن مجرد مرورها فى مجال الرائى، أو المتواجد، يحدث أمرا، من الصعب تفسيره أو تعيينه، فيه بهجة وراحة وثيرة وتمنى لو أنها دامت، استمرت.

أدق حالاتها وأوفرها حضوراً وأشفها رهافة، عند سعيها إلى الباب لمقابلة قادم، الترحاب عينه، تبدو ملامحها داعية، حاضة على توسد حضورها، الاستكانة إليها لذلك يتمهل القلب فى ركضه ويتأنى.

عرفت منها ذلك وصنته بخاطرى وذاكرتى، فإذا ما ناء بى رهق أستدعيت طلتها خاصة تلك المرات التى ما إن ولجت فيها الباب حتى أقبلت علىّ مرحبة وسألتنى عن أحوالى ثم تقدمتنى إلى حيث اعتدت الجلوس فى مواجهة البار.

من أعلى تخطو على الدرج إلى أسفل.

من الصالة تصعد إلى الطابق الثانى

من الحجرات الخلفية تظهر، تستدبر لتدخل الحيز الفاصل بين منضدة البار والأرفف الحاملة، عيناها المؤطرتان بتراتيل غامقة، نائية، يزداد عمقها عندما أستدعيهما، تلك اللحظة عندما توقفت أمامى فجأة، والتفتت لتخاطبنى بحميمية شاكية..

«لا تتصور إلى أى حد أنا مرهقة...».

ديبــسورا

عندما قـال صـاحبى ، عـالم النفس الشهير ، مصطفى صفوان إنه سـيـدعـونى إلى مطعم نادر وجـود مـثله الآن ، يقـدم طعـام المعلمين القدامى من تجار سوق الخضار والفاكهة واللحوم والأجبان والطيور المذبوحة ، توقعت أن أتعرف على مكان له فرادة وخصوصية ، لكننى لم أتوقع أبدا لقـاء شـابة ، جـميلة ، ذات سعى وحـضور ، وأننى لن أتبادل معها إلا كلمات قليلة جداً ، لكننى سأدرك أنها علامة فارقة . دالة ، خاصة عند استعادتها ، وتفحص اللحظات التى تقاطع فيها سعينا وتلاقى . لذلك تبدو محاولة اقترابى منها شاقة ، تحتاج إلى تمهيد وتقديم ، غير أنه لم يقع ما يمكن أن يلفت النظر أو ما يمكن أن يشكل مادة لواقعة يمكننى روايتها شفاهة ، فما البال بكتابتها؟ كيف أقدم على تدوين ما لم يقع ، ومحاولة النفاذ إلى ما لم يكن؟

لهـذا لن أبدأ الحـديث عن ديبورا ، فـمـا زال حـالها غـامضـا ، مستعصيا . لم أدرك منه إلا ما أدركته مع توالى الأوقات ، إنما سأذكر بداية من كان سبباً لدخولها مجال بصرى ومجرة رؤيتى .

عرفت مصطفى صفوان اسمـا قبل أن التقيه شخصـا ، إذ استعرت من دار الكتب المصرية كتـابا لسيـجـموند فـرويد عنوانه «تفـسـير

الأحلام». كان ذلك فى مستهل العقد السادس من القرن المولى، مازلت أذكر غلافه الرمادى الرصين، والأزرق الغامق للعنوان واسمى المؤلف والمترجم، وشعار دار المعارف، منارة الإسكندرية، بل ما زلت أعى شكل الحروف المنتمية إلى آلة طبع، اعتبرت وقتئذ نقلة، وكانت الحروف تتشكل من رصاص مصهور له لمعة الفضة، ثم تندمج فى بعضها لتصبح سبائك مستطيلة أو مربعة، تعود لتنتظم من جديد حروفا، حروفا. أختفى ذلك وقت تدوينى هذا. اليوم السابع والعشرين من الشهر الخامس، عام ألفين واثنين بعد ميلاد السيد المسيح، بعد أن فرغت من القراءة تمنيت لو اقتنيت هذا الكتاب، لكن سعره كان مرتفعا بالنسبة لى، يفوق كافة إمكانياتى، كان جنيها ونصفا، حقا. . إن الأمر نسبى لا أدرى قبل أو بعد اطلاعى على تفسير الأحلام، قرأت إعلانا فى الصفحة الأولى من جريدة صباحية كبرى. لا أذكر اسمها الآن، عن ظهور الترجمة العربية لرواية جسر على نهر درينا للأديب اليوغسلافى إيفو أندريتش، الحاصل على جائزة نوبل العام السابق، كان السعر المعلن عنه تسعة وعشرين قرشا. وتتكون من حوالى أربعمائة صفحة، وقفت فى الفصل - إذن جرى ذلك قبل يوليو عام اثنين وستين وتسعمائة وألف - كانت ديبورا فى رحم الغيب وقتئذ، وفاليريا الروسية على وشك المجيء. وتانيا فى صوفيا طالبة جامعية، كذلك جانكا، أما آنيت الفرنسية، وتاتيانا العربية، وكريستين الفرنسية، وجابريللا الإيطالية، ولى تشى الصينية، وحُميرا الفارسية، وهدى الأمهرية فلم يلحن بعد فى الوجود، كنت أتحدث فى حصة تتصل بطرز السجاد، الأستاذ اسمه

سيد الرويبي، عائد لتوه من الصين، وهذا مما أثار مخيلتي وقتئذ. وكان لطيفا. رحب الصدر، يصغي إلى تساؤلاتي حول تلك البلاد البعيدة، وشخص ماو الذي أكن له احتراما وإعجابًا، دائما حذرني منه الأستاذ وأنذرني بخطورته وما يمكن أن يؤدي إليه، لم أع تحذيره إلا فيما بعد، لا أدري السياق الذي جعلني أتحدث عن ارتفاع سعر الكتاب المترجم، قال إن السعر معقول بالنسبة لعدد الصفحات، فكرت وقتئذ.. إن ما يعد خارج إمكانياتي يعتبر ميسورا بالنسبة له.

جسر على نهر درينا، وتفسير الأحلام. أحد سبعة كتب أقدمت على نسخهم في هذا العام لاستحالة اقتنائي ورغبتي في الاحتفاظ بهم، كنت وافر الهمة، مكتملا بالنسبة إلى ما صار إليه حالي الآن، قادر على تمضية الأوقات في نسخ الصفحات المتوالية، بالنقطة والفصلة، حتى الهوامش باللغة الألمانية التي لا أتقنها رسمتها. هذه الكتب تعلق بمخيلتي حتى الآن. أذكرها شكلا ومضمونًا، وبالطبع علق عندي اسم مصطفى صفوان، لذلك عندما قال صاحب عزيز التفيته في باريس عام تسعة وسبعين أنه ماض إلى لقاء الدكتور مصطفى صفوان، قلت على الفور..

«مترجم تفسير الأحلام..».

أبدى صاحبي دهشة.

«تعرفه كمترجم.. ولم تذكره عالمًا نفسيا شهيرًا..».

قلت إنني أعرف منزلته من العم محمد عودة الذي حدثني أيضا

عن والده، الشيخ صفوان عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعى المصرى الأول.

قال صاحبى: إذن . . تعال معى . .

فى الطريق قصصت عليه نسخى لتفسير الأحلام.

فاتنى تفصيل.

ذلك أن صاحبى هذا بادرنى عند اللقاء بدعوة صفوان لى، وأنه قرأ لى وراغب فى التعرف علىّ، عندئذ قلت على الفور.

«صفوان مترجم تفسير الأحلام . .».

هنا قال صاحبى، واسمه عبدالملك وكان ومازال مقيما فى موسكو مراسلاً للأهرام .

«تذكره مترجمًا . . ولا تعرفه عالمًا . .».

هنا ذكرت له نسخى لتفسير الأحلام فأبدى تعجبه لذلك. عندما أصغى مصطفى صفوان إلى تعرفى هكذا به، قال:

«أنت تعبت فى الكتاب أكثر منى . .».

قال إنه ترجمه لمتعته ولضرورة وجود النص بالعربية، أما أنا فنسخته للضرورة، يمكن القول إن تلك الليلة بداية تعرفى الحميم عليه. ونقطة تحول فى علاقتى بالمدينة، كما أن ديبورا تمثل نقطة تحول أخرى فى مسارى كما سأذكر فيما بعد.

جاء مصطفى صفوان إلى فرنسا، فى نفس الشهر الذى انتهت فيه الحرب العالمية الثانية، أي الشهر الذى ولدت فيه. مايو عام خمسة وأربعين، يكبرنى بثلاثة وعشرين عاما. أنه يحفظ معالم المدينة، ملم بعمقها، ليس على مستوى الميادين والشوارع والتماثيل والنصب، إنما إلى الأفاريز وتفاصيل الواجهات. وأصص الورود، وأنواع الزخارف، والزجاج الملون المعشق بالجبس، فيما بعد مشيت بصحبته في ليال باردة، رياحها صقيعية، بالذات عند النواصى، يمشى نشيطا، متحمسا، ليصل بى إلى مدخل بناء تنتمى تفاصيله إلى عصر النهضة لكنه جزء من عمارة قوطية الطراز، كيف حدث ذلك، أو يعبر جسرا، ليصل إلى زاوية معينة يمكن منها رؤية تمثال لملاك وحيد فوق كنيسة سان لاشابل التي ولجت فضاءها الأزرق نهارا، معه عرفت المتاحف، وكيفية تذوق الفن التشكيلى، والمكتبات المتخصصة فيه. ومعه أيضا تجرأت على المطاعم الباريسية العتيقة والتي يرتادها الفرنسيون القدامى، وهذا عالم متنوع ثرى، أتمنى أن تتاح الفرصة لى لأفصل ما عرفته أو أبثه عبر ما أرويه من وقائع، كلما لاقيته يدعونى إلى غداء أو عشاء، لم يتكرر المكان معه، لكن ما يلفت انتباهى ويعلق بى أعود إليه بمفردى أو صحبة، وبعضها أصبح يعرفنى من يعملون به مهما تباعدت أوقات ترددى، بل إننى عرفت مطاعم لم يأكل فيها، دعوته إلى بعضها وأبدى إعجابه بها، من ذلك مطعم آنيت، أما البوليدور فى شارع الأمير فيعرفه منذ الأربعينيات، لكنه عندما صحبنى وأطلع على تاتيانا الضخمة الوارفة، قال مداعبا إننى ذواقة للجمال، كما أننى أجيد الاستمتاع بالطعام، عندئذ ذكرته بما أردده

دائما أننى أستمتع بالأكل الجيد إذا وُجد، فإذا لم يتيسير يكون سرورى بقطعة جبن دمياطية حادقة مع قرن فلفل مخلل ورغيف خبز بلدى طازج ما زال محتفظا بنار الفرن متجاوزاً لكل ما عرفته من نوادر المطبخ، فرنسيا أو صينيا، مغربيا أو إيطاليا، قال يوافقنى: يا سلام.. وهل يوجد مثل الجبن الأبيض؟

يستقر مصطفى صفوان فى مسكن قديم. عمارة شيدت فى العام الذى عادت فيه جيوش بونابرت من مصر، الشقة مقر إقامة وعيادة يلتقى فيها بمرضاه وهذا ما تعجبت له بداية فى باريس، أشهر الأطباء يخصصون حجرة من مقر سكنهم للقاء من يسعون إليهم، سواء كانوا أطباء أسنان أو نفسيين، أو متخصصين فى القلب وأوجاعه، لا يوجد من يتخذ عيادة مستقلة مثل أطباء مصر، مما لاحظته أيضا أن المرضى لا ينتظرون، فلكل موعده المحدد سلفا، يجىء فلا ينتظر لا يعرف من سبقه أو لحقه، هذا فى العموم.

إذ يجىء مصطفى صفوان إلى القاهرة فلا بد أن يزور بيتى، ويمضى وقتا أمام الأرفف التى تصطف فوقها الكتب، وأن نمضى إلى مطعم لا يتغير، الدهان القديم عند مدخل خان خليلى، يفضل لحم الماعز المطهو على البخار والذى لا يعد بهذه الطريقة إلا هنا، كذلك طبق الفتة المسقية بالخل ومرق الضأن ومغطاة بالثوم المحمر والبصل، تحويجه فريدة لا يقدمها الدهان إلا لزبائنه القدامى، ولابد من طلبها مقدما. يعرف عم أحمد ظروفى خلال السنوات الأخيرة، فلا يستفسر منى عما أرغب، يصغى بدقة إلى طلب ضيفى، ويدونه

بعناية، لا يسألني، ذلك أنه يعرف، ولو نطقت ربما تسببت في نكد من أستضيفه، فوجبتي من طبق سلطة خضراء يعده عم أحمد بنفسه، وقطعتان من اللحم المشوى جيدا الخالى تماما من الدهن، أما الثريد فولى وقته، لا أقربه حتى ولو من ناحية الذكرى، أحيانا أتناول ملعقة ملوخية خضراء بالتقلية كرشفة حنين إلى ما اعتبر زادى المفضل مقدارا ليس بالهين من أمدى. أتناول نصيبى على مهل، حتى يفرغ مضيفى من طعامه تماما، فمما لقنه أبى لى، ألا أفرغ قبل الضيف حتى لا أسبب له حرجا إذا طالت مدته وطاب له الأمر.

في ذلك اليوم قال صاحبى بلهجة العارف، المطلع، الملم..

«إلى مطعم المعلمين..».

وقت إصغائى، وتبدل خطواتى، من أين لى العلم أنها هناك، تسعى، يفيض حضورها يسعى بين الخلق، من أين لى الإلمام بأنها ستودع عندى أثرا، لولا دعوة صاحبى تلك الظهيرة لأتمت مدتها فى هذه الدنيا ولمضيت بدون أن تلج مجال بصرى، وأن يتردد أزيزها عندى لمسافات وأوقات.

قرب مركز بومبيدو الثقافى، كان يقع سوق الخضار والفاكهة التقليدى المعروف بالهال، عندما اطلعت على صوره القديمة أيقنت أنه أصل سوق الخضار فى العتبة وسوق باب اللوق، البناء الفسيح، المغطى بسقف من حديد مزخرف، تدق الزخرفة وترق كلما اقتربت من الواجهة، ثمة حروف وأرقام تؤشر إلى زمن محدد، المرجعية عندى لسوقى العتبة وباب اللوق، كلاهما موجود حتى الآن، قائم،

أما أصلهما النائى فلم أره إلا عبر الصور الملتقطة فى النصف الأول من القرن الماضى الذى ولدت فيه والمعلقة إلى جدران هذا المطعم الذى بلغناه ظهراً . ولجنا باب البيت القديم الواقع عند ناصية شارعين ، أحدهما عريض تمر فيه السيارات ، ويصب فى طريق ريفولى الممتد بحزاء النهر ، والثانى ضيق لا يتسع إلا لمرور الدراجات وعربات اليد الصغيرة .

إلى اليسار باب صغير يفتح إلى الخارج ، تليه درجتان تؤديان إلى المطعم ، غرفة صغيرة عادية ، تحوى ست مناضد صغيرة ، يمكن جلوس اثنين إلى كل منها ، ويمكن ضم أكثر من واحدة إلى أخرى ، منضدة من رخام ، فوقها أطباق كبيرة ، تحوى أنواعًا من الطعام ، من كبد الأوز المهروس ، المحفوظ ، إلى سمك الرنجة المملح ، الغارق فى الخل الأبيض ، والمختلط بشرائح البصل ، وسلطة خضراء ، وحلوى مختلف أنواعها .

أعرف هذا الترتيب المتبع فى مطاعم فرنسية قديمة تمت إلى منطقة الوسط ، سبق أن تناولت الغداء في مدينة ليون طبقا لهذا النظام ، حيث يتم وضع هذه الأوانى الخزفية أمام الزبائن ، فوق المنضدة . يتناول كل منهم قدرا يضعه فى طبقه ، وبعد أن يفرغ الجميع يتم نقل الأوانى إلى منضدة أخرى أمام زبائن آخرين ، مازلت أذكر مذاق العدس أبو جبة ، وشرائح السمك فى الزيت والخل والليمون ، ولحم أحمر يخالطه جيلاتين ، أطباق باردة ، تقدم كمشهيات ، حتى يتم إعداد الطبق الرئيسى الساخن والذى يرغبه الزبون بعد تفحص القائمة

ومناقشة مع القائم على الخدمة، كان المطعم فى ليون فريداً لم أعرف مثيلا له فى باريس والمدن الأخرى، هذا المطعم يشبهه لكنه يتفرد بوجود ديبورا.

عندما تقدمنى صاحبى المجرب وفتح الباب، تصدت له، وقفت أمامنا حازمة، مشهرة كيانها الماثل من لونين، بشرتها البيضاء المشربة بحمرة، وسواد شعرها وردائها المكون من قطعتين «بدلة» جاكت وبنطلون لونهما أسود غميق، فهمت من الحوار أنها تعتذر عن تقديم الخدمة، لقدومنا متأخرين، ولأن الأماكن مشغولة غير أن صاحبى لم يتراجع، ذكر شيئا ولمحت تكرار لفظ «المدام»، عندئذ تطلعت إليه كأنها تراه من جديد، ثم أشارت إلى أعلى فأبدى الموافقة بإيماءة من رأسه، أفسحنا لها لتتقدمنا، وعندما بدأ صعودها علقت بى ودخلت مدارها، كان قوامها الفاره المزدهر باستداراته الضاغطة أول ما لفت حواسى إليها وثمة شىء آخر فى امتشاقها الكلام وإشهارها الحركة، كأنها ضابط برتبة لواء على الأقل، تذكرت موقفا من ألف ليلة وليلة، عندما وصل قمر الزمان إلى مدينة يحكمها ملك جميل الهيئة، استقبله ورحب به، ولم يكن فى الحقيقة إلا محبوبة قمر الزمان التى فرقتها عنه ظروف عديدة لا مجال لتفصيلها هنا، راحت وهى فى هيئة الرجال تراود محبوبها عن نفسه، فى البداية تمنع، وقال إنه ليس من أهل ذلك لكن تحت التهديد رضخ قائلا لنفسه إنها مرة وتعدى!

هكذا تمدد إلى جوار الملك فى الظاهر، محبوبته فى الواقع، وعندما أمسك الملك بيده وقربها ليضعها بين فخذيه. دهش قمر

الزمـان، تعـجب من هذا الملك الذى له فـرج!! ثم تكشف له الأمـر فانقلب الحال بالطبع.

لم تقدم ديبورا نفسها باعتبارها ذكرا، لكن جديتها الشديدة توحى بصلة ما بعـالم المحاربين فكأنهـا جنرالا أنثى، وهذا مـعـروف مـتـبع وبالنسبة لى يشكل غموضا مثيرا، أن أرى امرأة ذات رتب، وقبعة، وهيئة بوليسية أو عسكرية، لم تكن ديبورا منهن، فكل ما هو ظاهر مدرك، متاح منها يشى بأنوثة مجراتية كونية، أنها من أولئك اللواتى يدرك المـرء بمجـرد وقـوع بصره عليهن أنهـا مصـدر، ليست رجـعـا ولا صدى، لكن حرصها على إيجاد مسافة بينها وبين المترددين، من تقدم لهم الخدمة بلطف غزير وحزم حاد، جعل المسافة تبرز منها أمرا ذكوريا في جوهره. هذا التناقض أوجد عندها سرا، يحرص أمثالى على فضه واستيضاح أمره. بالمخيلة إن استحال الواقع.

فى الطابق الثانى قاعة أكبر، جميع مناضدها خالية، المفارش، الكؤوس، أدوات الطعام، لكن ما من أحد، رغم صدى عن المطاعم الخالية، إذ أفضل الأماكن المزدحمة حتى ألحظ البشر وأتبين بوجود الخلق، قال لى صاحب فندق بالبحر الأحمر إن أجمل ما يزين مطعمه هو الزبون، الأماكن الخالية تثير الوحشة، لكن انشغالى بهذه البنية زحمنى وأقصى ما اعتدته من خواطر. قامت بالخدمة على أكمل برنامج وأتم قاعدة وكانت تنطق بصوت مرتفع منغم.

«من فضلك..».

تقولها عندما تضع الطبق، وعندما تتناوله فارغا، وعندما تقدم

القائمة، وعندما تصب النبيذ وتقف منتظرة إيماءة الزبون بعد تذوقه، حتى إذا ما بدرت علامة الرضا أو القبول تبدأ الصب. عندما تقدم قائمة السحاب خلال حافظة جلدية عتيقة، عندما تتناول بطاقة الدفع أو النقود.

«من فضلك..».

كأنى أسمعها وقت تدوينى هذا، بقدر ما تحويه من حيادية وحرص على المسافة الفاصلة وجدية تنتمي إلى أمارة الذكورة، بقدر ما يبثه من ترغيب وتحذير، كأنها تنبه إلى طبيعة عملها الذى يستلزم الملاطفة والمداعبة وإبداء الرقة أو اللين أحيانا، لكن.. هذا كله عمل. أحذر!

أتفهم صرامة حضورها وسعيها، وأدرك بحسى فيضها الأنوثى، أتخيل لحظة ذوبان هذا القناع وسفور الرغبة وطرح الحميمية لثمارها تفتحها ماذا يسفر عنها وقتئذ؟ لا يمكننى التنبؤ فلكل منهن عالمها ومخيالها، وما نتصوره قد لا نلقاه.

فى المرة الأولى رأيتها وأصغيت إلى صاحبى يخبرنى أن المدام غائبة هذا اليوم، وأن هذه البنية لا تعرفه. إنها مستجدة، وأنه جاء هذا المطعم فى عام سبعة وأربعين أو ثمانية وأربعين، كان سوق الهال فى أوجه وقتئذ، وكانت المدام طفلة تحبو، قلت ضاحكا.

«كذلك أنا..».

«من فضلك».

لاحظت أناملها المحيطة بغصن الكأس، تعدل وضعه لتصب النبيذ الأحمر، جرعة الاختبار، يرفعه صاحبى بتأن، بخبرة العارف المجرب الحق أننى لم أعرف ذواقة للطعام مثله، كذلك الشراب.

لم أعرف أنها ديبورا إلا فى الزيارة الثالثة.

دائما أحتفظ بالعناوين الحميمة خلال أسفارى، لعلى أبلغ تلك الأماكن مرة أخرى، أو أزود بها صحبى الذين أحرص على معرفتهم وإطلاعهم على ما ألممت به، إذا لم أجد بطاقة مطبوعة أستفسر وأكتب العناوين فى كراسة صغيرة لا أصحبها إلا خلال الترحال. غير أننى فى المرة الثانية مضيت متتبعا الذاكرة، بعد عبورى الجسر الجديد، واجتيازى طريق ريفولى، ولجت الشارع العرضى الذى يتفرع منه الزقاق الصغير، عنه ألتقائهما تقع البناية.

«مطعم أدريان..».

قلت للبنية الهيفاء. التى فصلت أمرها فى تدوين آخر بعنوان لذلك لن أفيض فى الإخبار عنها. فالهدف المكان عينه، وبقدر الإمكان أحرص ألا أحيد خاصة عن اللواتى لم أعرفهن إلا بالنظر والحوار العابر وبقاء الرغبة هائمة، هذا قصدى هنا، أما صاحبتى هذه فأكتم أمرها مع وعدى بتفصيله فى تدوين مغاير.

وقفت بالباب مبتسما، وراء البار ديبورا مبتسمة، والمدام هكذا قدرت، كنت اتصلت عبر الهاتف وطلبت منها حجز مكانين

للمصرى، اتجهت مباشرة إليها صافحتها وكأنى أعرفها منذ زمن بعيد، ضممت مدة صاحبى إلى رصيدى الهين. قلت إننى صديق للدكتور مصطفى صفوان، عندئذ أومأت ديبورا مؤمنة، وإشارت إلى فوق، إلى حيث تناولنا الطعام فى الصالة العلوية.

«صفوان. . السيد صفوان. .».

ثم التفتت إلىّ متسائلة.

«فيه حجز؟».

«أنا المصرى. .».

تهللت، أشارت إلى المنضدة الصغيرة الملاصقة للبار تماما. فى وسط الصالة المحدودة، أتقنت الخدمة وتقديم المودة، حاشنى عن تتبعها وأقتفاء أدبارها رفقتى لصاحبتى تلك، أهوى الإحاطة بالقوام المتقن من خلف ومن قدام، أهوى مكتملة الاستدارات، خاصة الأرداف، كانت سترتها المكونة من قطعتين تشى ولا تصرح، الجاكيت مشدود كأنه خيمة عند الصدر، والبنطلون رغم أنه ليس بضيق لكنه يومئ إلى ما خفى أو تتعمد هى إخفاءه عن الأنظار، كانت جديتها مثيرة للنزوع، حاضة على الدفع، تعمدت إقصاء بصرى عنها خشية أن أعلق فيفتضح أمرى مع صاحبتى تلك، فللأناث حواس مرهفة، غير أننى بعد عودتى إلى غرفتى فى الفندق القديم واكتمال انفرادى وبدء مخاوفى الليلية فى الترحال أن أقضى وحيدا، أتأخر عن فتح الباب، يلجون الغرفة فيلاقون الصمت الأبدى، كيف يتصرفون عندئذ؟ كنت أتعمد أن أترك إلى المنضدة المجاورة دفترا صغيرا يحوى

أرقام هواتفي ، يتصدرها هاتف السفارة في باريس ، وأصدقائي ، كل من له صلة . كنت أعتذر عن قبول مفتاح شقة يمتلكها صاحب حميم عاد إلى القاهرة ليستقر بعد بلوغه سن التقاعد ، احتفظت أسرته بالسكن الذي كان عامرا بالذكريات عندي ولي عنه حديث طويل في مجال آخر ، تلك الليلة بعد سفر صاحبتي إلى الجنوب حيث تقيم استحضرت ديبورا ، في تلك الليلة ، في تلك الغرفة أدركت أن رؤيتي تبدلت . لم يكن استدعاء حضورها وجمال نحتها ورشاقة سعيها باعثا لأي حس أو محرك لأي رغبة . كأني أتأمل كائنا مجردا من الضوء . لم يرتبط تأملي لحضورها بأي رد فعل ، في أحوال مماثلة منذ سنوات كنت أقوم بالمخيلة على فعل كل ما لم أحققه في الواقع ، ليس بالنسبة لأولئك اللواتي حاورتهن وتبادلت معهن الحديث ، إنما كنت أستدعي عابرات في الطريق ، أو صالات المتاحف ، أو المسارح ، لا أعرف عنهن أي تفصيل ، لا اسم ولا عنوان لأي شيء . لكنني كنت أفيض بالطاقة وأمور بالرغبة ، فأرى من أعجبني حضورها ، لأقبلها ، لأداعبها ، لأجردها على مهل ، أبلغ الشرق والغرب في آن واحد ، لا أبرح . لكن ديبورا لم تثر عندي أمرا ، معها بدأت أدرك هدوء حالي . غير أنني لم أبلغ بعد ذلك الحد الذي عرفه هذا الرجل المتقدم في السن والذي حكى صاحبي عنه منذ ثلاثين عاما ، إذ عشق شابة تمت إليه بصلة ، فارق المجيء إلى الدنيا بينهما يقارب نصف القرن ، كان يجلس إليها بالساعات ، يتطلع صامتا معظم الوقت ، لا ينطق ، يترقرق بمعان شتى ، بين الحين والحين يمد يده لتلمس أطرافها ، حوافها كان ذلك أقصى طموحه وغاية مأموله منها ! . في المرة الثالثة قصدت بمفردي ، لم أتصل للحجز ، غير أن ديبورا

تهللت عند رؤيتى ، أما المدام فتقدمتنى إلى مكان خال بجوار النافذة ، جاءت بكأس من نبيذ الموسكا الذى فضلته المرتين السابقتين كمفتتح قالت :

«تحية من المطعم . . ».

كانت ديبورا تقف متطلعة ، مبتسمة ، عيناها نافذتان إلى كافة العيون التى تطلعت إليها أو تعلقت بها ، زمة الشفتين حازمة ، لكنها تبدى رسالة ما ، فتمنيت لو قبلت ابتهالى .

جنـــــان

عندمـا رأيتـهـا أول مرة صـدحت عندى أنغام قـديمة لأغنيـة تقـول كلماتها

«مرمر زماني ، يا زماني مرمر . . ».

نحتتها استوفزتى استنفرنى لـم تكن مجرد أنثى بل رأيتـها نصبًا للاتسـاق وكـمـال النسب وتمام البث ، واجـهـتـهـا بملامح لا تسـفـر ولاتنبىء . هـذا شأنى جبلت عليـه . فلكـم حـشت مـا يجب النطق به ، ولكم قمعت ردود فعلى إزاء ما استثارنى ، خاصة الجمال ، إما بسبب خجل أو خشية أمور لا أدرى تصاريفها أو منشأها .

عندمـا اتصلـت بى عبر الهاتف لم أخمن أنها هى ، لا ينبىء الصوت بما ولج مجال بصرى عنه عبورها الباب إلى فراغ مكتبى ، صافحتها ، ما زلت أذكر مـلامسة حواف محجرتهـا ، وقوفهـا بمواجهتى ، عيناها الواسعتـان ، مفرق نهـديهـا البادى ، رداؤها الجرىء ، إذ كـانت حوافه فوق ركبتيها عندما جلست غاصت فى المقعد الوثير ، واجهت ساقيها الملتصقتين ببعضـهـمـا فى إحكام قعدة متقنة لا تسمح لنظر فضولى بالعبور أبعد مما يبدو أو تسمح بظهوره .

الجلوس فى مواجهتها حتمى للتملى إذا سنحت الفرصة ولاحت الإمكانية ، لم ألزم مكانى العادى وراء المكتب ، قالت إنها هاجرت إلى الخارج بصحبة عائلتها أوائل الستينيات ، بعد أن طالتها قرارات التأميم ، أسرة مارونية تستقر فى مصر منذ القرن التاسع عشر ، أصولهم فى الشام ، خرجوا إلى فرنسا ، لكن والدها استقر بعد سنوات فى إيطاليا ، إنها تعمل فى مجلة متخصصة فى الأديان ، ذات صلة بالفاتيكان ، قلت إننى أحتفظ بكتاب يحمل اسما ينتمى إلى أسرتها ، أظنه شغل منصب الوزارة ، ربما وزارة التموين فى الثلاثينيات أو الأربعينيات . قالت إنه عم والدها ، بعد لحيظات صمت أتيح لى خلالها والاستزادة ، قالت إن هذا كله لا يعنيها الآن . إنها تعمل لتعيش . المنافسة فى أوروبا حادة ، يجب أن تعمل وتعمل ، هدفها تأكيد نفسها لذلك تجرى وتجرى .

الحق أننى لم أعرفها فيما تلى ذلك إلا مسرعة ، دائما متعجلة ، خطوها فسيح ، متسارع ، لم أبد أى بادرة فى لقائنا الأول ، حرصت على تبادل العناوين وأرقام الهواتف ، عندما أصغى إلى رفرفة تنبئ بقبول ما ، حتى وإن بدا واهنا ، أحرص على التعلق بخيط ما ألا ينتهى كل شيء عند البداية ، صحبتها حتى باب المصعد ، لخطوها ترديد قوى واثق متعجل ، وعندما عدت إلى المكتب أغلقته حتى لا يزعجنى أحدهم بما يقطع علىّ خلوتى بأثرها ، أحيانا أكتشف فى الإستعادة ما لم أره عند المعاينة .

لون ردائها أبيض به مس من زرقة ، بشرتها عند حدود السمرة

والشقرة، زغب ذراعيها ذهبي، يتموج مع الضوء، ينبئ الكمين القصيرين باستدارتين مكتملتين للذراعين، الارتواء في هذين الموضعين مؤثر، مفرق النهدين يؤدي إلى تكوينين قائمين بذاتهما، ليسا بحاجة إلى مشد، أما خصرها فمثير للعجب، إذ إنه وسط بين علوها وسفلها بقدر دقته ونحوله، بقدر استدارة ردفيها واكتنازهما المعجز، لم يكن لديها تقتير أو إفراط. أما فخذيها فلهما مطلع وأقدام، يقوم هذا كله معتمداً على ساقين لابد أنهما تعرف جمالهما واتساقهما. كل ما فيها متكامل، لا يمكن التوقف عند جزء والاستكانة إليه.

كم مضى على حضورها الأول لحظة تدويني هذا؟

ربما ما يقرب من عشرين عاما، لم أدون لحظة ظهورها الأول، ظننت أنني لن أنسى، لكن تكوينها طغى وغطى على ما عداه، لا أستعيد اللقاء إلا من خلال انبهاري وتدثري بنظراتها وبثها الأنثوي الغزير، لا أذكر الغرض الذي جاءت من أجله، اندثر هذا من حفظي، بالتأكيد موضوع ما يخص المجلة، إذ أرى إضمامة ساقيها ومطلعها أرى أيضا الدفتر المبسوط فوق حجرها، ويدها الممسكة بالقلم تدون ما أقول.

اللقاء التالي جرى في روما، هنا يمكنني التحديد، كان ذلك عام تسعة وثمانين، كنت قادما من بولونيا إلى العاصمة الإيطالية، اتصلت بها عبر الهاتف، قالت إنها مسرورة جدا لحضوري، وأنها تدعوني إلى الغداء عند وصولي، التقيتها أمام فيللا بورجيزي، كنت ممتلئا برؤية تمثال مدام ريكاميه الممددة فوق أريكة ممسكة تفاحة بيدها ومن

صدرها ينبت ثمر غض، عار، كذلك صرتها. المادة واحدة. المرمر، لكن النحات البشرى أودع مهارته ورؤيته فأثرى ونوّع.

عندما جلست إلى جوارها في العربة بدا انحسار التنورة القصيرة مدمرا، مرهقًا لى، غير أننى حافظت وتجلدت قلت.

«هل تعرفين عشق أبو نواس لجنان وما قاله فيها».

قالت إنها قرأت لأبي نواس لكنها لم تسمع بجنان، قلت إنه هام بها وأنشد فيها ومن أجلها أرق الأشعار، وعندما أرسل إليها يطلب ودها، قالت بازدراء متعجبة: كيف أستجيب لهذا الكلب؟ قلت ضاحكا إن هذا الكلب جعلنا نذكرها في روما بعد أكثر من ألف سنة.

ابتسمت، لكنها لم تعلق، ثمة مسافة فاصلة، لا أبدى أى همة لعبورها، ولا تلوح منها إشارة في المطعم، جلسنا إلى مائدة دائرية شبه متجاورين شبه متواجهين، ليس تجاورا تامًا ولا مواجهة كاملة قلت إننى كرجل شرقى لم أعتد أن تدعونى سيدة فلتسمح لى، قالت مبتسمة إن هذه الدعوة باسم المجلة وبتكليف من رئيس التحرير، عند انصرافنا تقدمتنى فكدت أشهق لتناسق خطوها، وامتثال بنيانها. هل شعرت بنظراتى تتحسس استدارة ردفيها وتندس خلال المفرق وتسرح إلى الساقين القويتين التى لم أعرف مثل تناسقهما وارتداء امتدادهما عبر الفخذين، بسرعة حدت حتى لا تلتفت بغتة فتمسك بى متلبسا، عند انصرافنا. نفثت عما يراودنى عبر ضغطة متينة لحظة المصافحة، شيعت عبرها ما أقدر على بثه من رغبة في القربى وإعجاب بدقة الاقتران بين أجزاء الجسد المكتمل.

خلال ثلاث سنوات متوالية رأيتها فى أصياف القاهرة، تهاتفنى تجىء سرعة وتمضى سرعة، دائما تهرع حتى فى ثباتها متأهبة. ثمة موعد هنا وموعد هناك إلى أن نزلت فى شتاء السنة الرابعة روما، اتصلت بها ودعوتها إلى الغداء، طلبت منها أن تختار مطعما جيدا، لأننى أعبر روما بسرعة فلم يتح لى معرفة مطاعمها ومقاهيها مثل باريس التى أمضى فيها أوقاتا أطول، قالت إنها سوف تنتظرنى فى المكتب وسنذهب إلى الغداء من هناك. وصفت المكان بدقة، وصلت إليه بعربة أجرة. عندما دخلت المكتب كانت تقف شاهرة قوامها، منذ اللحظة الأولى أدركت اختلاف اللقاء من هيئتها، من طريقة نظرتها من المصافحة لا أعرف، لكن ثمة شىء قالت مخبرة مبتسمة.

«أصبحت مديرة..».

أعلنت التهنئة وأبديت سعادتى قالت إن جهدها عبر سنوات بدأ يؤتى ثماره، إذ قرر مجلس الإدارة تعيينها مديرة للتحرير، قالت إن هذا يعنى أسفارا أقل لكنها فى حاجة إلى الاستقرار، ابنتها الآن فى الثالثة عشرة وابنها فى الحادية عشرة إنهما بحاجة إليها.

تقدمتنى، أغلقت الباب، قالت إننا سنذهب إلى مطعم قريب، أمامنا ساعتان. ثمة اجتماع فى الرابعة، مددت يدى.

«تفضلى يا سيادة المدير..».

بعد ساعة إلا ربعا وبعد تناول السلطة وشرب كأسين من نبيذ الموسكا المناسب للمدخل، التقت عينانا فجأة، كنت أخفض نظراتى

وعندما توجهت صاعداً إليها وقع الاشتباك، تداخلت بصماتنا فأرسلت المدد عبر أصابعي التي أحاطت يدها، قلت لها . .

«تأخرت تلك اللحظة عدة سنوات لأصارحك بما أشعر به . . » .

من سفل إلى علو تطلعت بخفر عذراء تبوح لأول مرة، قالت .

«وأنا كمان . . » .

أبقيت راحتي محيطة بيدها، أصغيت إلى نبضها . سألتني .

«متى؟» .

قلت منذ لحظة لقائنا الأولى، كتمت طوال هذه السنوات .

«لماذا؟» .

أبديت الحيرة، تطلعت إليّ . مصدرها مغاير لكل المرات السابقة، ملامحها رقراقة، عيناها مستكينة، عند انصرافنا أحطت خصرها، لكنها أشارت باتجاه مقر المجلة .

«لا تنس أنني أصبحت مديرة . . » .

قلت إن الرابعة لم تحن بعد . إنني في حاجة إلى قضاء خمس دقائق بصحبتها . خاصة أنني سوف أسافر غدا، تقدمتني . تقدمتني . وعندما ولجت المكتب تبعتها، أغلقت الباب، ونفثت مكنوني في إحاطة عسر إنهائها، رجت أتنسم رائحة جسدها الخاصة، هذا الجسد المتقن، ابتلعت رضابها .

«من فضلك . . من فضلك . . » .

أفلتت ، أشارت إلى الباب ، يمكن لأى محرر أو محررة أن يدخل فجأة ، سترأس الاجتماع بعد دقائق لا تريد أن تبدو مضطربة ، قعدت لحظات أحاول استعادة انتظام أنفاسى ، أن أخرج هادئا إلى الطريق .
قبل أن أغادر هاتفتها اثنتى عشرة مرة ، وقبل عودتى إلى مصر تحدثت إليها من فرنسا وهولندة . وعبر هذه المكالمات لم أخلُ بها قط ، دائما فى عجلة ، كأن شخصا أو أشخاصا يحيطون بها ينتظرون فراغها .

عندما جاءت إلى مصر بعد عامين دهشت لطزاجة نضارتها ، ولكننى لاحظت أن شعرها الغزير أصبح أقل كثافة ، ازددت معها جرأة ، لكنها تردد دائما أنها لا تريد الأمر كما يتم فى أوروبا ، يقضى كل وطره وينصرف إلى حاله ، إنها تتطلع إلى أجازة ليست أقل من أسبوع ، عندئذ يغرق كل منا فى الآخر ، يقبل الصاحب على صاحبه متمهلا واثقًا راغبًا ، تؤكد أنها لا تريد أن تكون مثلهم .

عبر سنوات متوالية حرصت على إبقاء الصلة ، إذا نزلت بلداً بعيداً أرسل بطاقة ، إذا حل رأس السنة أو عيد الفصح أو بداية الربيع أخط رسالة ، بين الحين والحين أتصل . تصغى دهشة متعجلة باللهجة الشامية ، تبادرنى . .

«كيفك . .» .

دائما مسرعة ، وكأنها على وشك الانتقال من حال إلى حال ، من ثبات إلى حركة ، أو من إقامة إلى رحيل . هل هذا ما ينسبها إلى الحمراء؟ لم أكن قادراً على تحديد عنصر الشبه رغم يقينى بوجوده ،

تخبرنى بأسفارها القريبة، وضغوط العمل منذ أن أصبحت مديرة، كأنها تعتذر مقدما عن الاستجابة إلى أى عرض للقاء ممكن.

بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر فى ذروة خشية الناس من ركوب الطائرات، سافرت إلى إيطاليا تلبية لارتباط قديم، كان المفروض أن أتجه مباشرة إلى بولونيا لإلقاء محاضرة فى جامعتها العريقة التى ترددت عليها مرتين من قبل، غير أننى آثرت البقاء ليلة فى روما والسفر بالقطار فى اليوم التالى.

«تتكلم من إيطاليا؟».

«من روما».

قالت منفعلة إنها راغبة فى رؤيتى الآن وفورا، قالت لن تتأخر إلا مسافة الطريق. تعمدت ألا أنتظرها فى بهو الفندق الصغير الذى لم أبدله منذ أن بدأت ترددى على العاصمة الإيطالية من حوالى ربع قرن، عندما اتصل بى موظف الاستعلامات أصغيت إلى اسمها وكأننى لم أتوقعها، طلبت منه أن يدلها على الغرفة.

عيناها الفسيحتان فى مواجهتى، ترتدى سترة تكشف مساحة من صدرها، ما يزال لساقيها المتانة المرمرية، قابلتها بحال الرسوخ، صافحتها وقبلتها بهدوء، دعوتها إلى المقعد الوحيد المجاور للنافذة. جلست قريبا منها على حافة الفراش، لم أشرع فى لمسها حتى عند تطلعى إليها، بعد صمت استغرق لحيظة رصدت شيئا ما فى ملامحها، أما شعرها فبدا أقل كثافة، مددت يدى لأمسك أصابعها،

قبل أن أنطق منبهها إلى مرور الأيام بسرعة، قالت إنها سترتب كل شيء قريبا، إنها تفكر في فينسيا.

«هل كنت هناك من قبل؟».

«لمدة ليلتين فقط . . ».

قالت إنها ستقضى أيامها بعد التقاعد هناك، فتحت حقيبتها أخرجت جهاز تسجيل صغير. دفتر أوراق صغير وقلما، قالت إنهم بصدد إصدار عدد خاص عن الإسلام، إنها مسئولة عن العدد بالكامل، طبعا الناس ينتظرون مادة غير عادية من مجلة متخصصة في الأديان، إنها تهدف إلى تقديم صورة دقيقة، غير معادية، ولا تستجيب إلى اللحظة الراهنة. لديها عدة أسئلة، قالت إنها تريد الإجابة يمكنني الاستفاضة كما أشاء، سيكون الحوار الرئيسى فى العدد.

فى هذه اللحظة انتبهت إلى رائحتها الخاصة، تنسمتها من قبل عندما حاولت ضمها في المكتب، الآن أكثر حدة، نفاذة، بالنسبة لى غير متقبلة، تحول بينى وبينها، للروائح والأنسام عندى شأن.

«تفضلى . . ».

ثمة شيء في ملامحها لم أعهده، لم أقف عليه من قبل. وجهها مفلطح أكثر، ربما، لكن ثمة اختلال في النسب التى أعرفها. بدأت أصغى، وعندما شرعت في الإجابة حرصت ألا ينعكس ما يدور عندى على ملامحى . .

جمال الغيطانى - يونيو ٢٠٠٢

الفهـــرس

رقم الإيداع ٢٠٠٣/٣٥٤٥
الترقيم الدولي 7 - 0929 - 09 - 977

مطابع الشروق
القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصري - ت ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)



6 221102 012508